امرأة غامضة

رواية

ياسين رفاعية

الكتاب: إمرأة غامضة (رواية)

الكاتب: ياسين رفاعية

الطبعة: ٢٠١٨



الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

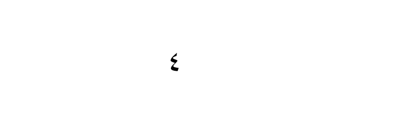
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر. الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

رافعية ، ياسين .
إمرأة غامضة / ياسين رافعية –الجيزة – وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٨.
تدمك: ١-١٤١- ٥٣٤٤ – ٩٧٧
أ – العنوان ٢٤٣ رقم الإيداع / ٢٠٠٨/١٠١٦٦

امرأة غامضة





شوارع بيروت خالية هذه الأيام، حتى الشارع الأكثر اكتنازًا بالناس يبدو مقفرًا، إنه شارع الحمراء الذي كان ذات يوم نجمة بيروت ، الساعة الآن الرابعة بعد الظهر، أتقدم من المقهى الذي طالما التقينا فيه معًا، لحظة أدخل، ترتفع أيد بالتحيات وأومئ بالرد. كنت أدرك أنهم يعرفون ما بي.

أتجه لطاولة في زاوية... كم تبادلنا عليها الأحاديث المفعمة بألف معنى ومعنى، وكم عليها همست لها بأحاسيسي وهواجسي، فتبدو لي كأنها تيتمع ولا تستمع في آن. دائمًا تخفي مشاعرها وراء أناملها وهي تداعب خصلات شعرها المرمية هلى الجبين السمح، أو تطرق إلى الأرض بصمت حزين. وإذا حاولت أن أبدي تبرمي، تستعيد هدوئي بنظرة خاطفة أشعر من خلالها كما لو أن سحرًا مسنيا وجذبني إلى أعماقها، إنها تفهمني جيدًا، لكنها تتجاهل، وتحاول أن تشدني إلى مواضيع أخرى إلى المدينة الذبيحة، الضحية التي تصلب كل يوم، لكنني كنت أدرك بقرارة نفسي أن كل هذا لم يكن يعنيها، فما يشغلها يبدو لي أنه أكبر من ذلك بكثير. إلا أنني ، وأنا أفقد كل يوم صديقًا من أصدقائي أو جارًا من معارفي، أشعر أن دوري أو دورها لابد آت، وأن المذبحة التي صارت تطال الجميع ستصل سكينها إلى أعناقنا. هكذا، كنت أتشبث بها، لعلي كنت أتشبث بالحياة من خلاها، وأحاول أن أنجو بها وبي من هذا الركام الهائل من الجثث التي نشيعها كل يوم، فبيروت التي أحببناها شعلة من الحياة ذات يوم، أصبحت مدينة موتى، تصحو على موت وتنام على موت. فالقتال مستمر، والناس تنقل بنادقها من كتف إلى كتف، حتى أصبحت الحياة فوضى لا تطاق.

وكنت مثل غيري أنتظر الفرج من السماء، أو من أي مكان آخر، وكنا في لحظات الهدوء ننزوي في المقاهي، كل مع همه ومشاكله ومتاعبه، وخوفه الدائم من اقتراب السكين إلى العنث. وكانت هي السلوى بكل حضورها الآسر الجميل، ورنة صوتها، وابتسامتها العذبة التي كانت تعيد إلى قلبي شيئًا من الاطمئنان والأمل. أي أمل؟ لا أعرف. كان غموضها دائمًا يحيرني فهي معي وليست معي، وهذه الطاولة بالذات هي موعدنا إن جاءت، وهي موعدنا إن لم تأت، لأنها تصبح الانتظار الطويل القاسي، وتكرار فناجين القهوة، ودعك الوردة التي تتصدرها فيحضرون غيرها، بل ظلت الطاولة في غيابها هي بالذات، حيث تمتد أناملي خلسة وتلامس الكرسي المقابل الذي – عادة — يحتوي جسدها البض، حين تكون حاضرة. هنا تسند ظهرها. هنا تضم ركبتيها مع نهاية المقعد، وهنا تميل، وهنا تلف ساقيها ساقًا فوق ساق. كانت ما إن تجلس حتى تصير حركة دؤوبة. فيها قلق ومزق مستمران وأنا أتأملها، أعرف أن ما يشغلها أكبر مني ومنها ومن العالم كله. وعند حضورها تشغل المقهى بكل ما فيه، من الخدم إلى رئيس الخدم، إلى الزبائن جميعهم، إلى الأصدقاء والرفاق، إنها آية من الجمال الصارخ، وأناقة لا حدود لها، مع بساطة في الأزياء التي ترتديها، وذوق رفيع في التبرج، كانت ملفتة، ما إن تطل، حتى أعرفها من عطرها، وربما من حركة عيون الناس التي تلتفت صوبها وبعضهم يشير نحوها، كأن مخلوقًا من كوكب آخر يدخل المقهى، إلا أنا، أنا المحظوظ بها، بل حظي الوحيد والمتعثر في آن. لا ألتفت. لا أبدي دهشتي، لكن قلبي في تلك الهنيهات يدق أضعاف دقاته المعتادة، فأنا وحدي مدرك أنني المتنعم بجلستها، وأنها لن تختار إلا طاولتنا، لن تجلس إلا معي، وتتبدل حركة المقهى كليًّا، هكذا أشعر، يخرج عن المألوف، برواده وخدمه، حتى باقات الورد الموزعة على الطاولات، حتى القلق المشوب بالخوف، ينزاح عن وجوه الناس، وهي جالسة بينهم، أمامي على هذه الطاولة تنقر بأناملها الرقيقة على خشبها

ذلك النغم الآسر الذي لا يبرحني، بل لعلي أرى أناملها الآن، وأسمع ذلك النغم، فأضطرب بمرارة الشوق إليها وبرحيقي الداخلي.

ها أنا وحيد..

لا أدري أين هي، فجأة غابت. منذ شهرين، ثلاثة شهور.. قرون طويلة. لا أدري. ودون أن تترك خبرًا أو إشارة إلى مكانها. كنت دائمًا أحاول معرفة المزيد عنها، إلا أنها ظلت تحيط نفسها بعباءة من الغموض، خمس سنوات كاملة، والحرب تأكل الأخضر واليابس، وهي تأكل أعصابي، ولا أعرف عنها إلا القليل، بدأت شجرة الشك غرسة صغيرة ثم نمت حتى احتلتني، كما كان حبي لها ذات يوم غرسة مشابهة. وأصبح الآن شجرة تحتلني هي الأخرى، كلتاهما متشابكتا الأغصان، وعذابي فيهما، نار تتأجج بدون انطفاء.

على هذه الطاولة. آخر لقاء، مدت يدها تتظاهر أنها تزيل عن وجهي رماد سيكارة، لكن كفها لامست فمي، كانت، عندما تراني أشعر بالضيق من مدها وجزرها، تمتد إليَّ كالشرارة ثم تنطفئ، تحرقني، ثم تحاول إطفاء حريقي بتصرفات متداخلة لا أجد لها تبريرًا، وهي في ذروة تألقها أشعر كأن غمامة من الحزن تقتحمها فجأة، فتتشاغل بوردة الطاولة، أو برفع فنجان القهوة مرارًا إلى فمها، رغم أنه أصبح فارغًا تمامًا، كنت أشعر باستمرار أنها تريد الالتحام بي ثم سرعان ما تنكفئ، أردت دائمًا أن أحسم الأمر معها: إما أن تكون لي بوضوح أو لا. وكنت غالبًا ما أتردد. أخاف. أقول في نفسي إنني أراها عندما يحلو لها، ونلتقي، وإن كانت لقاءاتنا تبدو كأن كل لقاء فيها هو اللقاء الأخير، أو أننا لن نرى بعضنا بعد ذلك أبدًا، لكنها في كل مرة تعود ثانية وثالثة، فتجمعنا هذه الطاولة التي أصبحت أكثر من بيت، وأكثر من مقهى. نرتشف فيه القهوة فنجانًا بعد فنجان، وأكثر من مطعم نأكل فيه عندما

نحوع، كانت هذه الطاولة ثالثتنا الصامتة، المنصتة إلى وجيب قلبين لا يعرفان ماذا يجمع بينهما وماذا يفرقهما؟!

هي أيضًا كانت تبدو لي مترددة في حسم العلاقة، وخشيت أن يكون ثمة رجل آخر، غامض، في مكان ما، يحاول انتزاعها من حياتي. بلغتُ الخامسة والأربعين، وهي بعد فتية. كنت أخشى باستمرار أن يكون هناك من يحاول أن يشغلها عني، وأتردد في سؤالها، فقد تكون هذه هي الحقيقة المرة.

في اللحظات التي كان يتاح لنا فيها الخروج من المقهى عندما يكون القتال منحسرًا، أو حين يكون هناك قرار لوقف إطلاق النار لا يزال ساري المفعول، أنتبه إليها وهي تتأمل الجدران المليء بالملصقات وصور القتلى، رجال ونساء بريعان شبابهم. تقول لي: ما أروع هؤلاء الشعراء؟!

وأستغرب قائلًا:

– شعراء.. من هم الشعراء؟

تشير إلى الجدران.

– هؤلاء شعراء يكتبون قصيدتهم بالدم، يكتبون قضيتهم بالرصاص. فأقول لها:

– إنهم مخدوعون.. إنهم يقاتلون من أجل قضية خاسرة.

ترمقني بطرفي عينيها ثم تقول:

– ليس جميعهم.. ليس جميعهم.

تصمت، تحب دائمًا الصمت، فهي قلية الكلام، كلامها إشارات برقية، كلما أنصت لها في حوار ما، أشعر أن لديها الكثير من الكلام، لكنها فجأة تتوقف عن المتابعة. أردد: نعم.. نعم.. نعم.. ثم ماذا؟ فتضحك هي تهمس: البقية الأسبوع المقبل.

لكن البقية لا تأتي أبدًا، فكل موضوع تحكي فيه تقف عن تتمته، حتى في المناقشات السياسية، تستمع لي وترد قليلًا قليلًا، أحيانًا لا تبدي رأيًا بما أقول، وأحيانًا أحاول استفزازها بالحديث عن شيء ما تافه، عن هبوط سعر الليرة، عن فيلم لجيمس بوند، عن بائعي الملابس الشعبية في زوايا الشوارع، عن صراخ سائقي التاكسيات. عن شجار امرأتين حول زوجهما المشترك. لا تأبه، تبدو لي مصغية للوهلة الأولى، ثم اكتشف أنها تذهب بعيدًا بعيدًا عني، أسألها إن كانت تسمعني، فتضحك، تأخذ يدي وتحضن كفي، فأهدأ مثل عاصفة انحسرت.

على هذه الطاولة بالذات، لمحت في عينيها. بريق قلق، بريقًا يريد التعبير عن نفسه، غير أن ثمة ما يخنقه، ليرتد إلى داخلها، قلت لها:

– فيك شيء يقلقني.

ضحكت، دائمًا تهرب من السؤال المباشر إلى الضحك، لكنه ضحك معجون بالغرابة والاندهاش، لا هو فرح ولا هو حزن، ضحك هارب من مواجهة ما. من الدخول في عمق الأشياء. كنت لا أفهم سر هذا الضحك كلما حاولت حشرها بسؤال جاد عن هذا الذي فيها، وضوح وغموض في آن، نهار وليل في آن.

قدمت لي سيكارة، انتبهت إليها هذه المرة، إنها تريد اتخاذ قرارها الحاسم، لأنها كانت تدخن على غير عادتها، السيجارة تلو السيجارة، فتنكشف أمامي الحقيقة التي ظللت أهرب منها دائمًا. ما الذي يشجعها على الارتباط بي، وأنا أدخل مرحلة العد

العكسي، وهي بعد وردة لم تتفتح، خشيت من إعلان قرارها هذه اللحظة، فحرصت على تضييع فرصتها مبتدرًا بالتغني بجمالها. كنت أعرف أن حديثي عن جمالها يسحرها، وهي من خلال هذا التشوق تعرف كم هي غالية عليّ! وكم أنا أحبها! فينحسر مدها، تصغي بشغف، فأحرص على جعلها تنسى ما تريد أن تقول. كان يخيل لي أنها تريد أن تلفظ تلك الكلمة التي تريد أن تضع حدًّا لعلاقتنا. وسرعان ما أضع أناملي على فمها وأهمس:

– خلف عينيك أراه ذلك الحلم الآسر.

تقاطعني:

– بدأنا!

– اسمعيني.. لا شيء يفك عقدة لساني سواك.

تضحك، هي الضحكة ذاتها. الغامضة، الساحرة التي تخرج كالقصيدة، فيلوح لي أن كل شيء فيها هو القصيدة. أقول لها:

– أنت تعرفين عندما أكون بعيدًا عنك يُختم فمي بالشمع الأحمر.

ولكن حواري الداخلي يطول ويطول، وأختزن كل كلمة حب حتى أقولها لها.. تتأملني، ترفع عن جبينها السمح بعض الخصلات المجنونة، ثم تقول لي:

– هات.

أفرح، لأنني أبعدتها عن أفكارها، أو عن اتخاذ قرارها الحاسم.

تكرر:

– إنني مستمعة لك.. هات.

وكأنني أقرأ من كتاب، بل أستغرب نفسي، كيف استطعت أن أرصد كل هذه الكلمات التي تتدفق كل مرة مثل نبع انفجر من أعماق الأرض فجأة، بل هي الأرض والنبع والماء معًا عندما أكون في حضرتها.

وتتململ:

– إنني مصغية لك.

– حسنٌ.

أقول وأتابع:

– أدور في الاتجاهات الأربعة، وحيث يشير قلبي أعرف أين أنت؟

تضحك ثانية وتسألني:

– إذن.. أين كنت البارحة ؟

لا أجيب، أخاف أن تحول تدفق عواطفي إلى سخرية، بل أتابع:

– أتلمس بأناملي الطقس البارد وأعرف أنك الدفء الوحيد. فتجيب ساخرة:

– حسنًا ولماذا اشتريت مدفأة إذن؟

– ألا تكفين عن السخرية؟

فتلامس يدي بأناملها:

– «لا تزعل.. لا تزعل» أنا أمزح معك.

أصمت.

تقول هذه المرة جادة:

– أنا مصغية إليك.

- يا سيدتي.. الليل وحده يعرف أنني بدونك جسد بلا روح وشجرة بلا ماء. وبيت بدون سقف. في كل هذا الظلام الداكن لا شيء يضيء غير حضورك. لأنك عطر البراري الشاسعة، ولأنك الأسطورة والفرح الداخلي.

أحس أنني أمتلكتها. فأتشجع وأتابع:

- دائمًا أشعر أنني ملموم من حطام ولا أتماسك إلا في حضرتك. دائمًا تداهمني الأشباح المرعبة ولا ينحسر الخوف إلا بعشقك، إنك الحلم المنبع وأنا قوافل من الخيول تصهل وراء ظلك.

ترفع يدها، فأصمت. تقول:

- إنك تجعلني قصيدة.

- هل تعرفين إذن أنك تآلف الليل والنهار. وأنك الأماكن السحرية التي لا يعرفها أحد ولن يعرفها. وأنك البلابل تنشد الفجر والغروب. وأنك البحر والمجهول والأماني التي لا حدود لأحلامها، وأنك الخلايا والدم والأعصاب، وأنك العفو عند المقدرة، والسيف الذي يبعد عني الغدر والنفاق والكذب، وأنك ضلوع الهواء يسامر أغصان الشجر، وأنك بعد هذا كله حبيبتي.. حبيبتي... حبيبتي.

تهمس منتشية:

- كفى أرجوك.. كفى.. أريد أن أكون قصيدة أخرى.. قصيدة أخرى. هل تفهم؟

وفجأة تقف، تبتعد دون كلمة وداع، فأظن أنها سترجع.. لكنها تخرج من المقهى لا تلوي على شيء.. أخاف أن أكون قد أغضبتها. وأندم. أشعر كأنني ولد مراهق آذيت شعورها إلى هذا الحد المزعج.

وتختفي..

ويومًا بعد يوم، أذهب إلى المقهى كأنني أحد موظفيه، حتى عندما تتعرض المنطقة للصواريخ والقذائف من الجهى الأخرى، أغامر، وأتحاشى الشظايا وأنا في طريقي إلى هناك، فالمقهى أيضًا يشبه الملجأ، والبناء الذي فوقه يرتفع إلى عشرين كطابقًا، ومعظم الناس الذين في الشارع يلجأون إليه عندما يشتد القصف، كانت هذه هي العادة، حتى صاحب المقهى كان يعتبر مقهاه أكثر أمانًا من بيته، فلا يكاد يفارقه.

هكذا، مرة بعد مرة، أسترجع ذاكرتي في كل ما يتعلق بها، أحاول أن أفسر كل كلمة، كل إشارة، كل حركة.. ماذا تقصد هنا؟ وماذا تريد هناك؟.. وماذا قصدت في تلك؟..

أحيانًا تجيء على غير موعد، لا مواعيد بيننا، تذهب متى تشاء، وتعود متى تشاء، دون أي ارتباط محدد بالزمن، أما أنا فعذابي أنني دائمًا مشغول بانتظارها، تجيء، فتجدني ضمن حلقة من الأصدقاء، أفرح بها، ويفرحون بها، كان لحضورها طعم الورد والعطر والربيع. كنت ألمح في عيون أصدقائي حسدهم، وكنت لشدة خوفي عليها، أخشى أن يلفت نظرها أحدهم، أو أن يغريها آخر، حتى بت أتمنى ألا ألقاها إلا وحدي. كان الجميع متفقًا على قوة شخصيتها، على جمالها، على غموضها، لم يكن هذا شعوري وحدي، بل كل الذين عرفوها.

على شاطئ البحر، في صباح باكر، على كورنيش المنارة، كنت أتمشى مع الدكتور سعيد، دق بابي باكرًا وألح على مرافقته في رياضة صباحية، كان القتال متوقفًا لعدة أيام، وهناك وساطات ومفاوضات لوضع حد للقتال. هكذا

كل مرة، يتفقون، ثم سرعات ما يبرز من يخرب اتفاقهم، تارة من هنا، وتارة من هناك.

كان الوقت صيفًا، فارتديت ملابس خفيفة وذهبت مع سعيد. هذه أول مرة أتمشى باكرًا على الكورنيش، أما سعيد فهذه رياضته الدائمة، كلما كان الوقت صيفًا، أو صحوًا، أو لا قتال فيه.

قال لي الدكتور سعيد:

– الهواء في المدينة أصبح فاسدًا، ملوثًا برائحة البارود والجثث المتعفنة والدم والنفايات. هنا على الشاطئ، نستنشق هواء نظيفًا، «أوكسجين» نقيًا، لا بأس أن نموت بقنبلة، أو بطلقة رصاص، لكنني لا أريد أن أموت مختنقًا بهواء ملوث، بهباب سام.

التفت نحوي وتأملني قليلًا ثم قال:

– وأنت بدأت تترهل، فاحذر الترهل، أراك الآن أكبر من عمرك الحقيقي بسنوات. من الآن وصاعدًا، ستنزل معي كل صباح، لنمارس رياضة المشي.

لم أعترض. فعلًا كنت بحاجة إلى الهواء النظيف. وكنت بحاجة إلى الرياضى، وبحاجة أيضًا للترويح عن النفس. جاري هذا طبيب أعصاب، رب أسرة، في الستين من عمره، أحد أولاده يقاتل مع مليشيا مسلحة. وهو كلما حاول منعه، تمرد عليه، بقية أولاده لا يزالون صغارًا، وله بنت تزوجت من طبيب هي الأخرى قبل عام. سألته عن ابنه الذي يقاتل.. يقاتل من أجل من؟ قال لي:

– كل يوم أطرح عليه هذا السؤال فأتلقى جوابًا مختلفًا، هو لا يعرف لأجل من يقاتل.. لأجل لبنان.. لأجل العروبة.. لأجل الشيطان.. لا أحد يدري. إنه لا يقبل نصائحي. وأنا تعبت من المناقشات الفارغة معه، بل صار يهددنا كلما فاتحناه بهذا

الموضوع، بأنه قد يتركنا إلى الأبد. أنت تعرف قلب الأم، لمجرد أن تسمع هذا التهديد، تصرخ بي أن أكف عن مناقشته وأتركه لحاله، عسى الرحمن يعود إلى قلبه.

مئات من الناس كانوا يمارسون رياضة الصباح، منهم من يركض، ومنهم من يمشي مسرعًا، ومنهم من يتمشى مثلنا. و.. فجأة، على الرصيف الآخر، لمحت فتاة ترتدي بذلة رياضية وهي تركض هرولة، تشبهها.. لا أدري، ربما هي، هل أركض؟ ابتعدت، لا. ليست هي، بل هي.. بل هي.. بشعرها المتطاير. وبجسدها المشدود كالرمح. اضطربت، كنت سأترك جاري وأركض نحوها، لكن أنى لي اللحاق بها. ابتعدت كثيرًا، قلت في نفسي: عندما تصل نهاية الشارع ستعود.. وربما تكون فتاة أخرى. ألهذا الحد بدأ نظري ينحسر؟ لا. لا. قلبي يحدثني أنها هي، لا يمكن لأحاسيس القلب أن تخيب. هي ذاتها النخلة.. هي ذاتها الرائعة التي أحبها.

وانشغلت عن صاحبي وتمنياته أن تنتهي الحرب ويعود الصفاء إلى بيروت، كان يثرثر، كمن لم يفتح فمه بكلمة منذ سنوات، وكنت ألتقط منه بعض الكلمات فأردد: صحيح.. صحيح. صحيح على ماذا.. لا أدري. عيناي انغرزتا في آخر الكورنيش، على الرصيف الملاصق لجدار الجامعة الأمريكية، لا بد لها من الرجوع في الاتجاه نفسه، لكنها لم تعد، قلت في نفسي ربما صعدت باتجاه عين المريسة ثم إلى الجامعة. فللجامعة طريق آخر في هذا الاتجاه، ترى هل رأتني؟ لو رأتني لتوقفت، للوحت بيدها، لاندهشت إذ تراني في هذا الصباح الباكر، لكنها لم تقل لي يومًا إنها تمارس رياضة الركض، ولعلي لم أسألها إن كانت تمارس رياضة ما. واستغربت كيف لم أسألها؟ فقامتها المشدودة دليل على ممارسة رياضة يومية، كل المقاييس الجمالية تنطبق عليها. إذن لابد أنها تمارس الرياضة. الركض. السباحة. آه، قالت لي مرة إنها تسبح مسافة «كيلو متر» ولا تتعب، لكنني لم أشاهدها ولو مرة واحدة وهي تسبح.

تـذكرت الآن، دعوتها مـرة إلى مسـبح فنـدق الكـارلتون، قالـت: إنها تحـب السباحة في البحر، وسألتني لماذا اخترت هذا المسبح الخاص جدًّا. خاص بالأغنياء ونزلاء الفندق؟ قلت: لأنه نظيف. قالت: لا.. البحر أجمل. قلت: لوثوا البحر.. ألا ترين كل هذه القاذورات التي لطخت وجهه الأزرق. رددت: أحب البحر.. أحب البحر.

كانت تتحدث عن البحر كأنه حبيبها الوحيد. في الحقيقة شعرت بالغيرة من البحر، أيمكن أن يأخذ منها كل هذا الاهتمام، حتى كأنها تقرأ فيه كتاب فلسفة.

قالت: المسابح الصغيرة تشعرك أنك في مكان مصطنع. كل شيء مقلد لسواه لا أحبه. البحر مخلوق عظيم، طبيعي. لا شيء يشبه البحر.. أشعر عندما أغوص فيه كأنني أستعيد حريتي، فأتحرر من كل هذه الأزياء التي تتحكم بمزاجنا، عندما أغوص تحت الماء أشعر أنني سمكة تخترق المستحيل.

تذكرت الآن كل أحاسيسها البحرية، كانت تقول لي إن لي أحاسيس بحرية، استغربت هذا التشبيه، قالت ضاحكة: السمكة تعرف أنها إن خرجت من الماء تموت. وإن اقتربت من عالم البشر اصطادوها وأكلوها. مرة دعوتها إلى غداء سمك.. أتذكر؟ رفضت وقالت: قلت لك لا أحب السمك.. وقت لك مرارًا لا أحب الذبائح كلها. وتذكرت ما من مرة دعوتها إلى الغداء إلا وطلبت طعامًا من الخضار. لم أكن أنتبه في ذلك الحين، عندما كانت تمازحني وأنا أقضم السمك الصغير مع حسكه، فتردد: وحشي.. وحشي. لا.. لم تكن تمزح. كانت تعني هذا الكلام. آه، أتذكر الآن، إذا أكلت لحمًا في غداء معها، كررت الكلمة ذاتها: وحشي.. وحشي.

البشر اللحميون وحوش – تتحدث ضاحكة – لم أكن أهتم بتلك الملاحظات. فأنا أحب تناول جميع أنواع اللحوم. دجاج. سمك. غنم. بقر.

مرة حاولت أن أسايرها، فطلبت صحنًا من الخضار المشكل مثلها، فاعترضت قائلة: لا أحب أن تزيف من أجل إرضائي. كل ما يحلو لك. أنت وحش بشري ممتاز. فلا تتخلَّ عن وحشيتك، أذكر قلت لها: سأتحول نباتيًّا.. لماذا الاعتراض؟ قالت: لا أعترض. لكن أقول لك إن الطعام الصحي هو النبات. اللحوم ليست صحية.. ثم إنها كانت مخلوقات حية. وأنا أكره قتل المخلوقات الحية. قلت لها: إلى هذا الحد قلبك رقيق؟ قالت: إنني أفزع من رؤية الدم. وأنا أسبح تحت الماء.. ألمح تلك السمكات البريئة الملونة في محيطها المائي الجميل، فأتمنى لو أتحول سمكة وأغوص في الماء ولا أعود إلى حياة البشر حيث الكبير يأكل الصغير، والقوي يعتدي على الضعيف. واعتقدت أنني أمسكت بها عندما قلت: وهذا أيضًا عالم البحر.. السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة.

قالت: نعم.. نعم، لكن هذه الحيوانات لا عقل لها ولا خيار لها في آن. أما نحن البشر، فقد أعطانا الله العقل كي نحتكم إليه دائمًا.. لكننا في غالب الأحيان لا نحتكم إليه إلا من أجل مصالحنا.

والدكتور سعيد إلى جانبي ما زال يثرثر، كنا قد وصلنا إلى أطراف عين المريسة عندما اقترح علي العودة، لكنني ظللت واقفًا في مكاني برهة وأنا أحدق في الشارع المقابل الذي يصعد في اتجاه شارع بلس. لعلها آثرت الصعود من هنا، ربما اكتفت فعادت إلى الجامعة.

عدت مع صاحبي والتفت صوب البحر، على الشاطئ مئات العلب الفارغة التي رماها المتنزهون.. وكذلك أطفال وفتيان يسبحون عراة قرب الشاطئ المليء بالقاذورات.. لكنني حدقت في البعيد حيث يلامس البحر نهاية الأفق: «لأنه عظيم.. أشعر أنني عظيمة فيه» نعم.. نعم.. كلماتها عن البحر عادت إلى ذاكرتي كأنها نشيد بحري.

وأتذكر، دائمًا، وباستمرار، تقتحمني الذكريات.

كنا نتمشى معًا على شاطئ الرملة البيضاء، كانت قد توقفت أمام فتى يبيع الذرة المسلوقة، فاشترت «عرنوسين»، وفيما كنت تقدم لي أحدهما، قال الفتى موجهًا الكلام إليها:

– الله يخليلك هالأب.

ضحكت، حتى كادت تنقلب عبر الحاجز الحديدي نحو الرمل، واندهش الفتى، لكنها أسرعت وقتلت له دهشته بدهشة أخرى عندما وضعت في يديه قطعة نقدية من فئة الخمس وعشرين ليرة. وما كان ثمن «العرنوسين» سوى ثلاث ليرات. وشدتني من يدي بعيدًا وهمست وهي تبتسم:

– أنت أبي.

فزعت من التسمية، أحبها، قالت لي:

– أبي مات من زمان، قتله اليهود في حرب حزيران، كانت أمي حاملًا بي.

ولم تزد.

وأنا لم أطلب منها المزيد، لم أكن أريد أن تستعيد أحزانها وهي إلى جانبي، غير أنني قلت لها على عجل:

- أنا أبوك منذ هذه اللحظة.

ضحكت.

ولم أنس. لم أنس أبدًا، الآن، وصاحبي إلى جانبي، ألمس بأنامل يدي اليسرى ظاهر يدي اليمنى، حيث طبعت عيها في تلك الهنيهات قبلتها الحنون، وضحكنا ذلك الوقت كثيرًا عندما قلت لها:

- الله يرضى عنك يا ابنتي.

أصبح النزول إلى كورنيش المنارة أيام السلم، عادتي الجديدة كل صباح، متعللًا برياضة المشي. غير أن الحقيقة كانت غير ذلك، لعلي أراها، أصادفها راكضة على الرصيف المقابل للبحر حيث صار يحلو لي السير.

كنت إذا لمحت فتاة عن البعد تركض، يخفق قلبي، ثم اكتشف أنها ليست هي، كان يخطر في بالي أن أستوقف فتاة ما تركض وأسألها عنها، لكنني في اللحظة الأخيرة أحجم كي لا أسمع كلامًا قاسيًا من هذه الفتاة أو تلك «أيها الكهل المتصابي».

وعندما أتعب من المشي، أتجه إلى مقعد ما من المقاعد المتناثرة على رصيف الشاطئ مستعينًا بفنجان قهوة من أحد الباعة المنتشرين بسياراتهم الصغيرة التي جعلوها مكانًا للرزق. سيارات صغيرة صنعت خصيصًا لتكون مقاهي متنقلة فيها القهوة الشاي وأشكال مختلفة من العصير «والصندويتش» تباع للمتنزهين والفارين من حر الصيف وقسوة الحرب عندما يكون القتال منحسرًا.

معظم هؤلاء الباعة صاروا أصدقائي، أجلس عند أحدهم في مواجهة الرصيف الآخر، فيما بقية الناس تجلس في مواجهة البحر، فأراقب الرصيف الآخر لعلي ألمحها مرة ثانية وهي تركض، وفنجان قهوة بعد فنجان أسمع حكايات من الباعة عن أسى

الحرب، وعن الناس الذين أصبحوا بدون مأوى، عن الحزن المنتشر في وجوه المتنزهين الباحثين عن هواء نظيف بعد أن امتلأت رئاتهم دخانًا وبارودًا وحرائق.

كان يحلو لبائع القهوة أسعد، بحيويته وتدفق شبابه، أن يروي لي ما رواه البارحة، مكررًا، دون أن يتذكر أن ما يرويه الآن، رواه لي مرات. وأحيانًا يسألني عن عملي، فأضحك، وأقول له إن مهنتي الدفاع عن المجرمين واللصوص والقتلة.

– يعني حضرتك محام.

– لكن مهنتنا توقفت عن العمل في سنين الحرب كما ترى يا أسعد. ولولا بعض المدخرات لوقفت إلى جانبك أبيع مثلك القهوة والعصير.

– والله يا أستاذ الشغل موعيب. أنا موظف في الريجي، ولم أعد أستطيع الالتحاق بعملي.. الناس تموت رخيصة، وأنا عندي عيال يا أستاذ.. والراتب ما بيكفي.. لقمتي حلال والحمد لله.

ويسألني أسعد عن أسرتي، فأضحك وأقول له:

– أنا أرمل.

يقطب بين حاجبيه:

– خير يا أستاذ.. خير.

– لا.. لا.. تركتني زوجتي منذ زمان وسافرت.

– يعني.. حضرتك مطلق.

– مطلق.. أي والله. كنت أعيش حياة تعسة يا أسعد.. وكان لا بد من الفراق.

فيردد بحماسة:

– خيرها بغيرها يا أستاذ.. لعلك ستفعل؟

– في هذا العمر يا أسعد؟

- ولو يا أستاذ.. بعدك شب.

لو يعرف أسعد أين أنا، ومن أنتظر، لو يعرف أي عناء أعاني منه، وأنا أتمشى كل صباح هناك على الرصيف المقابل، وعندنا أتعب أنتقل إلى زاويته على الرصيف، وأختار مقعدًا من مقاعده. تاركًا البحر ورائي في انتظار امرأة تأتي ولا تأتي.

البحر ورائي، ومباني الجامعة الأمريكية أمامي بكلياتها المتفرقة، المزروعة في قلب حدائق، هي الأجمل في بيروت، وظلت زاهية، بالرغم من الحرب والدمار، كل المتحاربين كانوا متفقين على تحييد الجامعة وحدائقها. كانوا يعتبرون هذه الجامعة لكل اللبنانيين ولأبنائهم جميعًا، فحرصوا على عدم استهدافها. بعض الأحيان كانت تسقط قذيفة هنا، أو قذيفة هناك من مدفع شارد، أو مصوب غير دقيق، لكنها لا تحدث أضرارًا تذكر.

هل هي هناك الآن؟

لو كنت شابًا لاقتحمت المبنى. وسألت عنها، وفتشت في القاعات، والمطاعم، والأندية، مكانًا مكانًا، وزاوية زاوية، لكنني كنت أخجل، فماذا يفعل كهل مثلي أشيب الشعر. يتجول بين الطلبة ويسأل عن فتاة ولا يعرف أين هي. كنت أخجل حتى من أصدقائي عندما يسألني أحدهم: هل.. هل.. وهل.. ولا أحير جوابًا. هم يعتقدون أننا متحابان.. وأنا لا أريد الإفصاح. أوحي لهم أن هذا صحيح.. أوحي لهم أن الحب سر. حلاوته أن يكون سرًّا لا يشاع. متى أشيع تكاثرت عليه السكاكين من كل حدب وصوب. وأقول بيني وبين نفسي ليعتقدوا ما شاءوا، ولكن سرعان ما أوضح ألا شيء بيننا غير الاحترام المتبادل. لا أريد الإساءة إلى سمعتها، الناس تعتقد أن كل عاشقين نهاية ليلهما غرفة نوم، شخصيًّا لم أكن أهتم بهذه الناحية أبدًا، وأظن أنها كانت تدرك ذلك، كنت أحب لهذا الحب أن

يكون منزهًا عن كل غرض، أن يكون صافيًا وصادقًا، لم تلوثه لوثة ما مثل تلك العلاقات العابرة التي يظن أصحابها أنهم عشاق حقيقيون وما هم بعشاق حقيقيين.

كانت ذروة سعادتي إذا تمشينا معًا في شارع الحمراء، أو على شاطئ الرملة البيضاء حيث يحلو لها التنزه فيه معًا، حين تقوم بحركة عفوية تأخذ كفي إلى باطن كفها وهي تتحدث حول موضوع ما، فأترك يدي في يدها، متمنيًا أن تنساها في كفها إلى الأبد، وإذا افترقنا، أكون كالطفل الذي تركته أمه، لكن حنانها يظل عابقًا بقوة داخل كفي، فأغلق يدي زمنًا، محتفظًا بذلك الدفء ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، بل لا أبالغ إذا قلت إن طعم كفها تظل تسري في عروقي زمنًا إلى أن نلتقي ثانية. فيتكدس حنانها مجددًا داخل أعماقي، في أعمق نقطة في دماغي وفي أدق شرايين قلبي. بل بدت راحتي مثل شجرة تتراكم فيها يومًا بعد يوم قشرة جديدة من حنانها. فتميل كتفي نحو يميني.

- هكذا يا أسعد.

نعم.. أستاذ.. ماذا قلت؟

- لا شيء.. لا شيء. أعطنا فنجانًا آخر كفاف يومنا يا أسعد.

- تكرم يا أستاذ.

الشمس تصعد، فأتحرك مودعًا أسعد، وأشير إلى سيارة «تاكسي» تنقلني إلى المقهى:

- مرحبًا يا شباب.

وأجلس، حيث دائمًا طاولتي الأثيرة المختبئة وراء عمود المبنى الضخم. إنها طاولة لا تغري أحدًا بالجلوس عليها. لأنها تحجب عنه بقية المقهى والشارع والناس.

وكل داخل أو خارج. وما كان يهمني في الأصل كل هذا. فإذا جاءت، فهي تعرف مكانها، وهي كل ما أتمنى أن أراه. وإذا غابت، فهي أمامي بظلها، وحركتها، وعظمة جمالها، ونقر أناملها على الطاولة، ثم هذه المفاجأة الداخلية التي لا تتوقف.. إن كانت موجودة معي أم غير موجودة.

حياتي كلها أصبحت بين قوسين: كورنيش المنارة صباحًا، والمقهى ظهرًا حتى بدء الليل، والليل كله ينصت إليَّ وجيب قلبي، وموسيقى من راديو صغير يعمل على البطارية لا تتوقف إلا عندما أنقل المؤشر إلى نشرات الأخبار، ثم تلك الانفجارات التي تظل تخترق سكون الليل. الحرب مستمرة، لعن الله الحرب، ننتقل من سيئ إلى أسوأ، نتوسع كل يوم بصورة أكبر، وتكثر الشعارات المتنوعة «الفولكلورية» التي يذهب تحت رايتها آلاف القتلى، بيروت، مدينة الموت، كما ظلت تقول عنها، مدينة العذاب اليومي المليء بالرصاص والدمار والخوف والحزن والدموع، أشياء أصبحت مألوفة. ونسيت الوجوه كيف تضحك وتفرح، كل شيء يسير إلى الهاوية. باتت الناس لا يهمها غير أن تعيش يومها.

أما الغد فلم يعد لهم، إن جاء أو لا، لكن الغد كان يجيء دائمًا بأخبار أكثر سوءًا، وأنا أعاني من وحدتي الموحشة، لا أريد من أحد أن يخترقها، حتى الجيران الذين صاروا مثل أسرة واحدة. يلتقون معًا في الأماسي، أو يتناولون طعام العشاء مع بعضهم بعضًا، وأنا غالبًا ما أعتذر، أظل في صومعتي العالية التي أقيم فيها، إنها «روف» بناية في منطقة التنوحيين في رأس بيروت، وعندما يشتد القصف أهبط بضعة طوابق، وألجأ إلى الممر، لم أهبط إلى قبو البناية أبدًا، حيث يتجمع السكان والجيران، مرة واحدة فعلت، ولم أعد إليها أبدًا، إذ ضقت ذرعًا بالضجيج والصخب وصراخ الأولاد. وبكاء الرضع على أمهاتهم. منذ ذلك الحين صرت أفضل اللجوء إلى الطابق الثامن، حيث تعززت صداقتي مع الدكتور سعيد الذي استصحبني تلك المرة إلى

الكورنيش، فلمحتها هناك تعدو على الرصيف الملاصق لجدار الجامعة الأمريكية مرة واحدة، مرة واحدة فقط، ثم جذبتني إلى تلك الرياضة الصباحية التي لم أندم عليها. مرة واحدة وأعطتني نفحة جديدة من الأمل في أن ألقاها مصادفة، وأن ألون من حياتي الرتيبة في معاشرة ناس بسطاء طيبين، أمثال أسعد وأبو خالد وملك الكورنيش، وهو اللقب الذي انتقاه أبو إبراهيم لنفسه وصارت زبائنه تناديه به. وأبو إبراهيم يختلف عن أسعد كثيرًا، كان أستاذ مدرسة دمرتها المدافع.

فاختار ركنًا من الكورنيش يجيء إليه بسارته التي تحمل كل أنواع المشروبات الغازية والقهوة والشاي والنراجيل أيضًا، أصبح هو المقهى المفضل لمدخني النراجيل، وإذا صادف أن التقيت بالدكتور سعيد دعاني إلى تدخين نرجيلة عند ملك الكورنيش مع فنجان قهوة أو كأس من الشاي، يستند الدكتور سعيد على كرسيه باتجاه مشهد البحر. بينما أنا، كالعادة، أستند إلى سور الرصيف مديرًا ظهري للبحر ووجهي نحو مبنى الجامعة.. تكون هذه استراحتنا بعد مشي نحو ساعة أو ساعتين حتى نتعب، فنتخذ من مقهى ملك الكورنيش مكانًا لاستراحة هي أيضًا نحو ساعة قبل أن يذهب الدكتور سعيد إلى عيادته.

لم نكن نلتقي دائمًا، ولكن عندما نلتقي، أو ينادي عليَّ يستصحبني معه، كان يردد على مسمعي بما يشبه التمنن عليَّ:

– أرأيت كم هي رياضة الصباح مفيدة وممتعة؟

وأهمس في نفسي «لكن.. يا دكتور سعيد، لو كنت تعرف لماذا أصبحت هذه الرياضة عادتي اليومية.. لو كنت تعرف».

كان يحدث أحيانًا ما يجعلني أعض نواجذي ندمًا، عندما أدخل إلى المقهى، فأشعر أن ثمة شيئًا ما حدث، هاجسًا يقول لي: إن شيئًا ما خطيرًا حدث، ولا يخيب ظني. عندما يتقدم خادم المقهى أحمد ويهمس في أذني:

- لقد جاءت.. ولم تجدك.. فذهبت.

أسقط على كرسي الطاولة مصدومًا كمن تلقى ضربة قاسية على رأسه:

- ألم تقل لك شيئًا؟

- لا.. سألت عنك فقط.

- ألم تقل أنها ستعود؟

- لا يا أستاذ.. لم تقل شيئًا.

- لماذا لم تقل لها أن تجلس، تشرب فنجان قهوة ريثما أحضر؟

- والله قلت لها يا أستاذ.. لكنها اعتذرت. قلت لها: لابد أن يحضر فانتظريه. فأصرت على الذهاب.

أحس بالاختناق، كان يجب أن أحضر إلى المقهى منذ الصباح الباكر، وأجلس منتظرًا.

يبتعد أحمد، وأستعيد سكون نفسي، وسرعان ما أنتبه إلى رائحة عطرها المميز، الذي كان قد عبق بالمقهى لدى دخولها وخروجها. كان عطرها الذي لم أنتبه إليه في البداية هو الذي أصر أن يبقى بعد رحيلها، ثم راح يتقدم مني في الوقت الذي ابتعد فيه أحمد ليجلب لي فنجان قهوتي، ترى هل يستنشق رواد المقهى هذا العطر العظيم، كأنني أراهم يلامسون فضاء المكان براحاتهم ثم يمسحون بها وجوههم الهرمة، فتنتشي بشبابها،.. أما أنا.. أما أنا. في الشدة تعاستي، كم سأكون سعيدًا بها لو سبقت الزمن. هذا الزمن الذي لا يتوقف..وينتظرني، هذا الزمن اللعين القاسي، الذي لا

يهمه مواعيد العشاق. لو كنت أمتلك عصا سحرية لأوقفته عند كل قبلة. عند كل ملامسة يد. عند كل ليلة تمتلئ بحبيبين لا بد أن يفترقا.

وفي كل مرة كانت تحضر ولا تجدني تترك المقهى. بعض الأصدقاء يدعونها للجلوس معهم، لكنها تعتذر، وعندما نلتقي، بالمصادفة التي تختارها هي، أعاتبها، وأتمنى عليها أن تجلس، وتأخذ فنجان قهوة ريثما أحضر، فتقول لي كلمتها الثابتة: أنا لا أنتظر. لا أحب الانتظار. أفضل أن أشغل نفسي بشيء آخر، لدي أشياء كثيرة أهم من الانتظار، قد تكون مشغولًا أنت فلا تحضر، فماذا أفعل؟ أفضل الذهاب إلى الجامعة. قراءة كتاب. أمور كثيرة يجب أن أنتظرها ألغيتها من حياتي.

– وأنا.

أقول لها..

– وأنا.. ألا أستحق أن تنتظريني بضع دقائق؟

– أنت تستحق كل شيء. ولكن أخشى في انتظارك أن أعود وأنتظر أشياء أخرى. نحن نحب الانتظار، انتظار من يصفعنا على خدنا، ونحن نعرف أنه سيصفعنا، وعوض أن نسبقه ونقاومه، ننتظر كفه الضخمة المديدة تقتل الدم في وجوهنا.. ننتظر من يأتي نيابة عنا ويحرر لنا الوطن، انتظرنا اليهود حتى احتلوا بلادنا ولم نمنعهم عندما كانوا يفدون إلينا من كل حدب وصوب. هذه علتنا. ننتظر الذي يأتي ولا يأتي.. ننتظر غودود.. ننتظر الفارس المنقذ.. ننتظر أن يهبط علينا من السماء ليحرر الأرض ويحرر النفس من عقدها.

– لكنني، وأنا المعذب بانتظارك، ماذا أفعل؟ أنا الذي أنتظرك من الصباح إلى المساء. وأنتظرك مع الغروب ومع الشروق. أنتظرك على شاطئ البحر وفي المقهى. دون ارتباط بموعد ما، يمنع عني مرارة الانتظار فماذا أفعل؟ هل ألغيك من حياتي حتى ألغي هذا

الانتظار؟ أعطني موعدًا كي لا أنتظر إلا الموعد، أعطني وقتًا محددًا، الساعة خمس دقائق قبل الواحدة، فأنتظر حتى الواحدة وخمس دقائق. أنت، أنت بالذات، أنت التي ترفضين الانتظار. جعلت من حياتي كلها انتظارًا.

تحدق بوجهي وأنا ألهث بالكلمات. أدرك أنني أستفزها. وهي تدرك ذلك بالتأكيد. لكنني أشعر أن ثمة ما يلجمها دائمًا. دائمًا.. وأن في فمها ماء كثيرًا ودائمًا ما هو السر؟ ثمة ما هو غامض وعصي على الفهم؟ كيف أكتشفه؟ كيف أعرفه؟ لا أدري.

ودائمًا أحاول، فلا أصطدم إلا بغموض أكثر وأكثر، من هي؟

كيف تعرفت عليها؟

أذكر، كانت مصادفة إلى جانبي، نصفق لمارسيل خليفة وهو يغني نشيده الحماسي:

أناديكم
أشد على أياديكم
أقبل الأرضا

فكانت تخرج عن طورها، أكثر من الناس الحاضرين كلهم، تصفق، تصعد إلى الكرسي، وتصفر كأشطن الصبيان. وتصرخ: أعد.. أعد. ثم تنزل عن الكرسي وتدك على الأرض: أعد.. أعد.. ويتحول النشيد بعد ذلك من أغنية على مسرح إلى صراخ الصالة بكل ما فيها:

أناديكم
أشد على أياديكم
أقبل الأرضا

وفجأة تلتفت نحوي، كما تلتفت النار نحو الماء. كان حماسي عاديًّا، فمنذ صراخ أحمد سعيد[1]. فقدت الحماس لمثل هذا الهيجان. عندما كنت شابًا كنت أصدق كل الإذاعات، وكنت مهووسًا في الاستماع إلى أحمد سعيد، أكثر بكثير من الانتشاء بأم كلثوم. وخيل لي ذلك الوقت، أننا سنلقي بهم إلى البحر، أولئك القادمون من كل أرض، يسرقون التاريخ والجغرافيا، ويدعون أن بلادنا لهم، هكذا قالت التوراة، التوراة قرأتها من بابها إلى محرابها. كذب. كذب. أشياء لا يصدقها عقل. حتى في أشد قدسياتهم قوادون وسماسرة. قال لي صديق ذات يوم: هذه التوراة من تأليف حاخاماتهم، رسموها على شاكلتهم وأطماعهم وغدرهم.. الحقيقة اختفت. لو كانت موجودة لنسفت كل هذه الادعاءات. وفي شبابي كنت أتصور أننا بملايييننا المائتين سننفخ عليهم نفخة واحدة، فيتطايرون كالقش اليابس ويبتلعهم البحر.

وتكرارًا، يومًا بعد يوم. اكتشفت كم نحن ضعفاء ومساكين حتى بأفكارنا. وأحمد سعيد هذا الذي ظل يصرخ في آذاننا ليلًا ونهارًا:

يا عرب. في كل مكان. ما هو إلا ظاهرة صوتية تليق بنا حقًّا، ومثلما كنا جميعًا مثله إذاعات وميكروفونات وخطبًا حماسية.. أما هم فكانوا يعملون ويخططون بخبث وينجحون.

وتوفيق زياد المنادي من هناك:

أشد على أياديكم.

وأقبل الأرضا.

تحت نعالكم

---

[1] مدير اذاعة صوت العرب فى الستينات و السبعينيات

وأفديكم

من سيستجيب له من؟

كنت في ذروة يأسي حين التفتت نحوي وقد احمرَّ وجهها لشدة حماستها الملتهبة. كانت ترقص وتميل، كأن مسًّا من الجنون أصابها، فقلت لها مباشرة:

– من سيستجيب لتوفيق رياد يا آنسة؟

كانت الحماسة تشتعل في الصالة تصفيقًا حادًّا يكاد يصم الآذان عندما اقتربت مني وكأنها سألتني:

– ماذا قلت؟

– أسألك من سيستجيب لتوفيق زياد يا آنسة؟

أخذت تقول شيئًا، شفتاها القرمزيتان تتحركان بكلام ما. كلام ينفر من فمها كما ينفر الدم من جرح مفاجئ. فوضعت كفي وراء أذني واقتربت منها أكثر. قربت فمها من أذني، فلفحني نفسها الدافئ اللذيذ، وشعرت للوهلة الأولى بتلك الجاذبية التي من النادر أن تشدني، منذ اقتلعت من حياتي أي شعور تجاه النساء، ومنذ حملت زوجتي حقائبها ومدخراتها ولحقت بشاب يصغرها عشر سنوات، وأنا الذي أعطيتها كل شيء، غادرتني فجأة إلى أهلها وطلبت الطلاق، ثم اكتشفت كم كانت تخونني مع ذلك الطالب الذي تحول إلى مقاتل في المليشيا المسيطرة على المنطقة، وأدركت أنني لو لم أستجب لرغباتها، كما كنت أفعل دائمًا، لدفعت حياتي ثمنًا لخيانتها، فأعطيتها كل ما تريد وأعتقتها. منذ ذلك الحين لم أعد ألتفت إلى أي امرأة.. ولم أسمع، ظلت تكلمني ولم أسمع، حتى إذا هدأ التصفيق، وخف ضجيج الصالة سمعت عبارتها الأخيرة:

– كلنا سنستجيب له.. كلنا.

وراح الكلام يتدفق من فمها:

– أصحاب القضية استلموا قضيتهم. من الآن فصاعدًا نحن الذين سنحرر الأرض. بأيدينا.. بأسناننا، بأظافرنا.

وهي في ذروة حماسها. امتلكتني فجأة. ما هذا الجمال؟ هذه أميرة من أساطير الماضي.. كانت تتدفق حيوية. بل بدت لي أنها على استعداد كامل هذه اللحظة بالذات لتنطلق إلى بلدها دون أي عوائق. وطرحت عليَّ سؤالها:

– حضرتك فلسطيني؟

قلت لها:

– نعم.. نعم.. أنا فلسطيني.. غير أن تذكرة هويتي لبنانية!

– وكيف حصلت على الجنسية اللبنانية؟

ضحكت، ثم قلت لها:

– أنا لبناني أبًا عن جد.

– هل تسخر مني؟

– لا.. بالله. لا.

– إذن..

– دعيني أقل لك، إننا جميعًا فلسطينيون حتى تتحرر فلسطين.. عندئذ كل واحد يعود إلى بلده.

– يعني.. أنت معنا.. أنت معنا.

– كلنا معكم.. بل يجب أن نكون جميعًا معكم.. وهذا شيء طبيعي.. غير أنني لا أتحمس للكلام. الأرض لا تعود بالغناء والأناشيد والكلام.. بل بالنضال الحقيقي. بالاستشهاد. بالاندفاع الدموي نحو الوطن.

- نعم.. نعم.. أوافقك. لكننا بحاجة أيضًا إلى الموسيقى الحماسية، والغناء الحماسي.. للشعر. للقصيدة التي تصرخ فينا كالنار. وأنا أرى الذهاب إلى الوطن بكل الوسائل: بالاستشهاد والغناء والرسم والموسيقى وكل المظاهر الحضارية. تحرير الوطن مظهر حضاري، وكما الاستشهاد في سبيله ذروة حضارية، كذلك تجسيده شعرًا ورسمًا ورواية، وحتى مباراة رياضية، كرة القدم، شطرنج، سباق خيل. كلها مظاهر حضارية ونضالية في آن لتحرير الوطن.

وسألتها:

- هل تعرفينه؟..

- لا.. لم أشاهده في حياتي، لكنني مصممة على أن اراه. وأراه قريبًا جدًّا.

وجذبتها حماسة المغني مجددًا، واندفعت مع الآخرين في التصفيق والترديد مع الكورس، مما أتاح لي تأملها بقامتها الرمح المشدودة، تحت بنطال ضيق من الجنز وقميص أبيض قصير الكمين، ومفتوح على عنق طويلة مصبوغة بحمرة دمها الفائر، جميلة. بل خارقة الجمال. فرجوت الله ألا يجمعني بها مرة ثانية، لكن المكتوب على لوح القدر هو المكتوب، وكأن كل شيء أصبح مرسومًا بدقة عجيبة. فصرت ألقاها في هذه المناسبات المتكررة. بل، بغير ما إرادة، صرت أشعر أنني مساق من تلقاء نفسي لحضور مثل هذه المناسبات، وكلي أمل في اللقاء بها. ولم يخب أملي في البدايات أبدًا، فإذا سبقتها أحجز مقعدًا إلى جانبي، ثم سرعان ما أراها، فأشير لها. تضحك، وتعرف عندما تصير أمامي فتقول: هذا المقعد لي أليس كذلك؟ وتجلس عليه مباشرة قبل أن أقول إن كان لها أو لا. وإذا سبقتني تكون فعلًا قد حجزت مقعدًا هي الأخرى. فأمزح قائلًا: هل هذا لي؟.. إلا أن جوابها دائمًا كان يختلف عن جوابي.

– لي لك.. إنه لصديق لي.. على أية حال.. تعال واجلس.. وإذا جاء صديقي تتركه إلى مقعد آخر.

وأجلس إلى جانبها. وأشم عطرها المميز، فيشيع في نفسي سلامًا كنت أحوج الناس إليه.

ومرة واحدة أصادف أن سلم عليها شاب، فظننت أنه صاحب المقعد الذي أجلس عليه.. وقفت لأتخلى له عن مكاني، وإذا بها تضع يدها على كتفي وتضغط كمن تطلب مني أن أجلس. وعندما جلست، رفعت يدها عن كتفي، وتبادلت بضع كلمات مع الشاب ثم مضى. التفتت نحوي مبتسمة:

– هذه المرة كان هذا المقعد لك.

ضحكنا..

منذ تلك اللحظة أدركت أنني صرت أثير اهتمامها.. فسألتني عن أحوالي. عن أسرتي. لم أقل لها تفاصيل:

– أنا مطلق.. لم أكن سعيدًا. ولا هي كانت سعيدة.. قررنا الطلاق وذهبت في حال سبيلها.. حدثتها عن عملي في المحاماة. عن المهنة التي لم تعد لها قيمة في الحرب، لأن السلاح أصبح هو القانون، حدثتها عن أبوي العجوزين المقيمين في الجبل، وعن أختي المتزوجة في نيجيريا. قلت لها كل شيء يتعلق بحياتي اليومية، أطبخ وحدي، وأحيانًا تطبخ لي لعدة أيام السيدة التي تشرف على تنظيف البيت في الأسبوع مرتين. كل الأمور مرتبة على كيفي. الشركة الأجنبية التي ألاحق قضاياها في المدينة، لم تتخل عني، رغم أنها أغلقت مكاتبها في البلد، فمن المدخرات الباقية ومن مرتب الشركة الذي تحوله لي شهريًّا إلى البنك، أعيش حياة عادية. جد عادية، أختبئ من الحرب التي لا علاقة لي بها. وأتنفس الهواء عندما يتوقف القتال فأخرج إلى المقهى وألتقي

بأصدقاء، أو أحضر فيلمًا سينمائيًّا. أو أذهب إلى مسبح «الكارلتون» أتشمس قليلًا وأسبح وأعود إلى بيتي. هكذا، لا شيء مثير غير أخبار الحرب والقتلى والأحباب الذين نفقدهم كل يوم واحدًا إثر واحد.

في كل مرة كانت تسألني عن حالي وأحوالي، حتى أصبحت بالنسبة لها كفًّا مفتوحة بكل خطوطها:

– هذا خط العمر.

قالت ضاحكة وهي تمسك كفي برؤوس أناملها:

– «نيالك».. ستعيش مائة عام.

– مائة عام.. سامحك الله. ومن يعتني بي حتى مائة عام؟

– هذا خط المال.. لن تصبح غنيًّا أبدًا.. كل ما يأتيك تصرفه.

– هذا صحيح.. أرى المال وسيلة وليس غاية.. وسيلة لبعض صنوف الحياة. أن يلبس الإنسان جيدًا، يأكل جيدًا.. يعيش جيدًا.

– أما من هدف سياسي لك.. هدف قومي؟

– كانت لديَّ طموحات في الماضي.. درست الحقوق لأدخل حياة الناس مباشرة. أؤسس حزبًا سياسيًّا. أسعى لأن يكون لبنان بأعلى مستوى حضاري. وأن يكون دولة قوية اقتصاديًّا وعسكريًّا، ثم اكتشفت فيما بعد أنني أضعف من أن أكون رقمًا فاعلًا. فقد سبق السيف العذل. وطريق النضال طويل طويل، وأنا أصبت بخيبات مريرة متوالية، ليس فشل زواجي وحده هو السبب. بل كثير من الأمور التي واجهتني، حتى عندما فكرت أن أجمع حولي مجموعة من الشباب زملائي في الجامعة عندما كنت أدرس.. نسعى معًا لنجعل لبنان وطنًا للجميع، فإذا بالطائفية تنخر هذه الفكرة، وإذا بالرفاق الذين حاولت أن أقودهم إلى مستقبل ليس فيه ظلم، كانوا أشد

ظلمًا لأنفسهم. كان كل واحد منهم متشربًا أفكار أسرته الطائفية.. هكذا تخليت.. وهكذا انزويت. وقررت أن أصبح صفرًا على الشمال، وكفي مازالت بين يديها:

– وفي الحب.. أرى في كفك امرأة عجيبة غريبة. تحبك. ولكن ستظل مشغولة عنك بما هو أهم.

فأردد:

– لا أريد امرأة من هذا النوع.

تقول:

– أنت لا تملك قدرك.. قدرك هو الذي يقودك شئت أم أبيت.. في باطن كفك هذه المرأة التي ستشغلك كل الوقت بحضورها وغيابها، تحبها حتى الممات، ستظل تحبها حتى الممات.

– لا أريد امرأة تعذبني.. هل تضحكين عليَّ؟

– هذا هو المكتوب في كفك..

– وأين تعلمت قراءة الكف.. أو «الخزعبلات» هذه؟

– لا تقل ذلك.. لا تقل ذلك. أنا مؤمنة بما يكتبه لنا القدر. حياة كل منا مرسومة بدقة منذ أن يولد إلى أن يموت.

– وماذا تقول خطوط كفي أيضًا؟

تقول هذه المرأة ستعذبك بدون قصد منها. وستحبها حبًّا ميئوسًا منه. ليس لها عنوان. ليس لها بيت ولا محيط. امرأة مجهولة تراها عندما تريد هي ولا تراها عندما تريد أنت.. هذا هو قدرك «يا ولدي».

تراها تسخر مني. وتردد أغنية عبد الحليم حافظ على هذا النحو.

لا، لم تكن تسخر مني، كانت تقول الحقيقة.. أليس هذا ما حدث. وظل يحدث فيما بعد.

مرارًا قالت إنها لم تحب أبدًا أغاني عبد الحليم حافظ، ظلت تقول لي إنها أغانٍ محبطة للإنسان، وأنها اتكالية إلى حد عجيب. وأنها تصور الحب على أنه المشكلة الأساسية في العالم، وكأن كل الحروب وكل الهزات السياسية وكل الزلازل والكوارث والمآسي الإنسانية سببها الحب. وتتابع: هذا غلط.. لهذا لم أحب أغانيه ولا أغاني أمثاله. هناك قيم أخرى يتغنى بها الإنسان، هناك قيم الحرية. والكرامة الإنسانية. وتحرير الأوطان. الأغنية الغربية فيها الأمل والفرح والطفولة والبراءة والحب، لكن لم يكن الحب هو أساس الأغنية العالمية إلا عندنا، فترى المطرب يتأوه ويتأوه الناس معه ويبكون، لقد أبكى عبد الحليم حافظ، وما تزال كل صديقاتي تبكينه ما عداي. كنت أشعر أنه ناقص الرجولة، وأغانيه تليق بامرأة ولا تليق به. هل تضحك إذا قلت لك إنني معجبة بالأغاني البدوية أكثر من الأغاني الحديثة.. بل أنا معجبة بأغاني فهد بلان أكثر بكثير من إعجاب صاحباتي بعبد الحليم.

في كل مرة أحاول اختراق غموضها. تتهرب.. من هي؟ من أين أتت؟ تعطيني **إشارات: تدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت، تشارك إحدى صديقاتها غرفة نومها في بيت الطالبات، لكن تسافر غالبًا وتغيب، وحين أسألها تقول إنها كانت بزيارة أهلها.**

في المقهى. أحيانًا، أقنعها بالقيام بنزهة في السيارة، أو مشيًا على الأقدام، أو تناول الطعام في مطعم شرقي، كانت تحب الحمص. والفول المدمس، والفلافل، وكل الأكلات الشعبية التي لا تحتوي لحومًا ولا أسماكًا ولا دجاجًا.. ودائمًا، في النهاية، المقهى هو اللقاء الحميم. هو المكان الأثير لكلينا. الكل صار يعرف حكايتنا الظاهرية

على أننا عاشقان إلا أنا، أنا العاشق لها بكل ما فيها. لكنني لا أعرف مدى عواطفها نحوي. بعض الأحيان أشعر أنني أعني لها الكثير والكثير، وأحيانًا أشعر عندما أكلمها كأنني أخاطب حجرًا. هواجسي تكشف لي أنها ليست معي، وأن أفكارها في مكان آخر، ربما في مكان ما، أو في الجامعة.. لا بد، لا بد أن يكون في حياتها شاب ما في مثل عمرها.

مرة قلت لها:

- أما من شاب تفكرين فيه؟

تضحك، كعادتها، تضحك دائمًا عندما تريد أن تتهرب من الجواب.

ومرة حشرتها في السؤال، كنا نتمشى على شاطئ الرملة البيضاء، فسألتها ثانية. انتفضت، وقالت:

- هل أنت مجنون.. ليس لديَّ وقت لأفكر بمثل هذه الأمور.

وتلتفت نحو البحر وتشير إلى العمق البعيد، ثم تقول:

- انظر..

وألتفت حيث أشارت. البحر هادئ وحنون. يتحرك الموج ببطء موجة بعد موجة يعلوها ربد أبيض كالثلج.. وتنعكس الشمس الغاربة على السطح، فيتشكل مشهد جميل آخر.

أقول لها:

- ما أجمل هذا المشهد.

تقول:

- انظر إلى الشمس كيف تتحد بالبحر عند كل غروب.

أقول:

- إنه المشهد الذي يتكرر كل يوم ولا نمل من مشاهدته!

وصمتنا.

اقتربت من الحاجز الذي يفصل الرصيف عن رمل الشاطئ واستندت بمرفقيها عليه، وراحت تتأمل المشهد، فعلت مثلها متأملًا المدى الأزرق، الذي ظللت - مثلها - مسحورًا به.

فجأة، التفتت نحوي وقالت:

- اسمع..

حدقت إلى وجهها الجميل:

- نعم.. قولي ما تشائين!

قالت:

- اسمعني جيدًا وانتبه لي.

ضحكت أنا هذه المرة، قالت:

- أعرف.. أعرف.. لذلك سأطلب منك لا من غيرك..

وابتسمت:

- أنت تعرفين أنني ألبي كل رغباتك.

قالت:

- حسنًا.. ثم أردفت:

- هل ترى هذا البحر الجميل؟

- إنني أراه كل يوم وأتذكرك. أنت تحبين البحر.. وأنا أحب كل ما تحبين.

لمع بريق خاطف في عينيها ثم قالت:

- إذا مت. أطلب منك أن ترمي جثتي فيه!

صرخت:

– أعوذ بالله.. ما هذا الكلام الآن؟

قالت:

– نحن نعيش في مدينة الموت، أهم ظاهرة فيها الموت.

– أعرف ذلك.. ولكن ما خصنا نحن؟

تهمس:

– ألا تتوقع قذيفة هنا، سيارة مفخخة هناك؟ ألم تفارق أصدقاء لنا ماتوا. هكذا.. لا دخل لهم بما يجري؟

– صحيح.. صحيح.. لكن بعد الشر عنك..

رددت:

– أنا أتساءل.. لو حصل هذا.. لو حصل هذا؟

قلت محاولًا إنهاء الحوار:

– أموت أنا قبلك.. أسجد لله راجيًا أن أموت قبلك.

ضحكت:

– إذن.. اختر المكان الذي يجب أن أدفنك فيه.

قلت:

– لا أريد أن أشغلك بهذا الموضوع.. عندما أموت، لا يهمني أين تلقى جثتي.. في قبر.. في بحر.. أم بين الجرذان والقمامات.. لا يهم..

قالت:

– إذا كان لا يهمك.. أنا يهمني.. يجب أن نتفق من الآن.

فاقتربت منها هامسًا:

– يا سيدتي.. وحبيبتي.. كما تريدين؟

قالت وقد شدت من قامتها بما يشبه التصميم والحسم:

- أنا في البحر بعد الموت.. وأنت؟!
- وأنا أيضًا في البحر.. (قلت موافقًا)

وخيل لي عندما فتحت ذراعيها، كأنها ستحضنني، وتهيأت لأرتمي على صدرها، غير أنها أدارت قامتها بالكامل صوب البحر، تحتضن الهواء والموج، وشعاعات الشمس الغاربة وكل ما يحيط العالم، بل كأن ذراعيها وسعتا الكرة الأرضية برمتها.

اتكأت مجددًا على «الدرابزين»، ثم انخفضت وتيرة صوتها وقالت:
- إنه المكان الوحيد الذي يليق بنا.. القبر شيء كريه. حفرة على قد الجثة. ثم تراب ينهار عليها. إنني أحس بالاختناق.. أكره رائحة الغبار أكره رائحة الغبار.. البحر.. البحر أروع.. أنا وإياك سنتحول إلى سمكتين ملونتين.. وسننجب كثيرًا من الأسماك.

وكأنني في حلم:
- هل علينا ألا نلتحم.. إلا عندما نصبح سمكًا؟!

أخبرتني ذات يوم عن ذلك الصياد الكهل الذي تمنت عليه أن يترك مهنة الصيد، فكان أكثر **حكمة منها:**

هذا رزق الله يا ابنتي.. ومحلل وليس حرامًا، وأنا أمضي اليوم برمته لأصطاد سمكًا، أجلب بثمنه قوتًا وملابس وأقساط مدارس لأولادي. أيهم أفضل أولادي أم السمك؟

وقالت له:
- الأسماك مخلوقات أيضًا ولا يجوز قتلها.

وبحكمته البسيطة يقول لها:

- لست أنا من يوزع العدالة على البشر، هناك أعداد كبيرة من الناس تأكل السمك.. والسمك مغذٍ، ومفيد. وكله بروتينات وفيتامينات.. والله حلل لنا الصيد واللحم الحلال.. إنك لن تستطيعي أن تناقضي ما حلله الخالق لأبنائه من البشر.

مرارًا تمنيت عليها أن عرفني على هذا الصياد، وعدتني أن تفعل هذا يومًا ما، وظلت في كل مرة تقول: في المرة القادمة. وكلما أتينا على سيرته حدثتني المزيد عنه. إنه من سكان الأوزاعي. يصطاد السمك في منطقة السعديات. عندما يكون البحر هادئًا. يذهب بمركبه الصغير ويرمي شبكته هناك في المياه العميقة النظيفة، كما يرمي سلته في العمق. ثم يغوص وصار ويخرجها ملأى بأنواع مختلفة من السمك. ومع أن غيره من الصيادين يستخدم وسائل ممنوعة كالمتفجرات والديناميت، لكنه هو، لم يفعل ذلك أبدًا. بل وبوسائله البسيطة كان يحصل على رزقه اليومي. وكان يقول لها لا أحب هذه الطريقة في قتل الأسماك. بل هذه المذبحة إن شئت تعبيرًا آخر. أنا أصطاد سمكًا آن أوان أكله، وأعيد إلى البحر السمك الصغير الذي لم يئن أوانه.

ذات يوم قالت:

- قم.

وبدون تردد قمت، وسألتني إن كنت أحضرت سيارتي. قلت لها إنها في مرآب البناية، أستطيع إحضارها فورًا.. قالت: لا... تعال.

عندما صرنا على رصيف الشارع، أشارت إلى «تاكسي»، ثم أمرت السائق:

- إلى السعديات من فضلك.

اخترقت السيارة شوارع بيروت وأنا إلى جانبها. ما أغرب هذه الفتاة! تنفذ ما تريد عندما تريد هي. هكذا اعتدت عليها. كانت تقترح على السائق منافذ عدة ليتلافى ازدحام السير. وهي منافذ قلما أعرفها، وأنا ابن البلد.. فكيف تعرف هي

تفصيلات هذه الطرق كلها؟ هذه من غرائبها التي لا أجد لها تفسيرًا. إنها بجانبي.. والسيارة تمضي إلى أن أصبحت على الطريق الملاصق للبحر.

قالت لي:

- سنرى الآن صديقنا الصياد.

- هل أنت على موعد معه؟

- لا.. لا.. أنا أكره المواعيد المسبقة.

- لكن.. ربما لن تجديه؟

- بل سأجده! أتعرف ما الذي يؤكد لي ذلك؟

قلت: لا.

قالت:

- إنه صفاء الجو والبحر.. انظر إلى يمينك.. ألا ترى كم هو البحر هادئ؟.. صديقي الصياد سيكون الآن ساعيًا لرزقه فوق هذا البحر.

اقتربنا من قصر شمعون، وعلى بعد نحو مائتي متى منه، لمحت سيارة فيات قديمة. فطلبت مت السائق أن يقف بالقرب منها، وقالت له:

- إنه يعمل الآن.. هذه سيارته.

كان الوقت قبيل الغروب. واستغربت، قلت لها:

- أعرف أن الصيادين يخرجون باكرًا ويعتبرونه الوقت الأفضل للصيد.

قالت:

- لا.. أي وقت صالح للصيد.

فسألتها: إن كان لهذا الصياد مركب أين يركنه؟

ضحكت:

– لا تخف عليه، إنه مرتب كل أموره منذ أكثر من ثلاثين عامًا. إنه يركن مركبه بموافقة صاحب القصر بالقرب من مرفئه الصغير، ويحمل رزقه إلى سيارته ويمضي به إلى الأوزاعي، فيسلمه إلى مخازن بيع السمك ويحمل ماله ويمضي إلى بيته، حياة يومية روتينية لم يتخل عنها أبدًا.. واليوم الذي لا يستطيع فيه أن ينزل إلى البحر، يستدين مالًا من أصحاب محلات بيع السمك. لا يبخلون عليه. مهما طلب يعطونه، يعرفون أنه سيقدم لهم سمكًا عوضًا عن هذه الأموال، عندما يتاح له الصيد. ولا أستغرب، فالعلاقات البشرية بين أهل المدينة لا نجد لها مثيلًا في الخارج.

قد تكون الحرب أحدثت شرخًا بين السكان، لكن ليس إلى حد الكراهية المتبادلة، أو النفور المتبادل. المتقاتلون أنفسهم، المنتمون إلى أحزاب ومليشيات تتصارع في البلد، ينضمون إلى بعضهم بعضًا في حلقات الشاي والقهوة عندما يكون هناك قرار بوقف إطلاق النار، يتمازحون ويضحكون، ويغنون معًا الأغاني الشعبية ويرقصون الدبكة.

ولا يستطيع الإنسان الغريب أن يصدق أن هؤلاء كانوا يتقاتلون قبل قرار وقف النار بمختلف أنواع الأسلحة.. وأنهم، إذا تلقوا أوامر باستئناف القتال، سيفترقون إلى خنادقهم ومتاريسهم ويبدأون الحرب من جديد. هكذا على الوتيرة نفسها من التقاتل والتلاقي بين عشرات قرارات وقف إطلاق النار. بل حين يسقط قتيل من هذا الفريق أو ذاك. يحييه الطرفان تحية المحارب بإطلاق النار الغزير في الفضاء.

كنت أمشي إلى جانبها، اقتربت من باب حقل مزروع بشجر الليمون والموز. ثم دفعت بابًا خشبيًّا بكتفها. فإذا بنا داخل الحقل. سلم عليها رجل مسن كان

يجلس على الأرض قريبًا من خلف الباب. وثمة ما يخفيه تحت عباءته. فاقتربت وقبلته من جبينه. وقالت:

- أين الشباب؟

فأشار لها صوب البحر.

«شباب..» تساءلت.. ماذا تعني بكلمة شباب؟ وما أن اقتربنا من البحر حتى رأيت مجموعة من الشبان في حلقة دائرية والسلاح بأيديهم، وبدا لي أن الرجل الذي في الوسط رئيسهم. استغربت. ما علاقتها بهؤلاء. وعندما لمحها رئيسهم، وقف، ثم اقترب منا، كان ينظر نحوي بشك وريبة، وأنا أيضًا توجست خيفة. لمحت قلقي، فقالت: لا تخف.. هؤلاء زملاء في الجامعة.. أردت أن أسألها: أهم زملاء جامعة أم مسلحون.. بادرتني:

- لا تسألني شيئًا.. ستعرف كل شيء فيما بعد.

قدمتني إلى الرجل بعبارة لن أنساها ما حييت:

- إنه صديقي المحامي.. صديقي الوحيد الذي سيدافع عني إن ارتكبت جريمة.. انفرجت أسارير الرجل ثم مد يده نحوي وصافحني بقوة:

- أهلًا بالأستاذ.

وقدمته لي:

- إنه أبو أحمد.. هذ الرجل ستعرفه جيدًا فيما بعد.. وستحبه كثيرًا.

بدا لي أبو أحمد هذه المرة أكثر انشراحًا، وراح يرحب بي، ثم قال: الرفيقة حدثتنا كثيرًا عنك.

«رفيقة، شبان، سلاح، حدثتهم عني».. يا إلهي. ماذا في الأمر؟

التفتت نحو أبو أحمد وسألته:

- هل أبو العبد هناك؟

أجابها:

- نعم.. نعم ستجدينه هناك.

فرجته أن يعود إلى رجاله، وأمسكت بيدي وشدتني. فمشيت إلى جانبها. ثم انتبهت إلى شبان عديدين. بين أشجار الموز والليمون. وأسلحتهم في أيديهم، وانتبهت إلى مدافع رشاشة مصوبة نحو البحر. كنت أحاول أن أسألها، ثم أحجم، وكنت أعرف منذ زمان أن صاحب القصر هجر قصره إلى بيروت الشرقية، وأن المكان كله الآن تحت سيطرة الجبهة الشعبية والحزب القومي.. لكن ما علاقتها هي بهؤلاء.. يا إلهي.. تذكرت تحيتها لهم، تحية الحزب القومي عندما يلتقي أفراده بعضهم بعضًا.. ثم ما علاقة أبو العبد بكل هؤلاء وأنا الذي فهمت منها أنه صياد مسكين يحصل قوت يومه بعرق جبينه. وكأنها كانت تدرك ماذا يجول في خاطري رددت هامسة: أرجوك لا تسأل.. سأقول لك يومًا ما، كل شيء.. ستعرف.. ستعرف.

وما إن أصبحنا على الشاطئ تمامًا، حتى لمحت الصياد في مركه وهو يسحب شباكه، بدا لي عن بعد كهلًا في الخمسين، لكنه شديد البنية، وضعت إصبعيها في فمها، وصفرت مثل الفتيان، ضحكت، وقلت لها: لم أعرف أن عندك هذه الموهبة، فعادت وصفرت بشكل أقوى.. فالتفت الصياد نحونا ولوح بيديه. قالت:

- انظر.. كيف يسعى الفقراء إلى رزقهم.. إنه التعب اليومي من أجل الاستمرار.. سترى.. كم هو الفارق كبيرًا بين حياتك وحياة الآخرين.

اقترب الرجل بمركبه منا، حتى إذا لامست مقدمة المركب اليابسة قفز نحونا وشد المركب قليلًا، وأسرع مرحبًا:

– يا أهلًا يا ابنتي.. من زمان لم أرك.. هل كنت مسافرة..؟ كيف أمامك.. ما هي أخبار إخوتك؟..

وكأن الرجل يعرف كل شيء عنها وعن أسرتها، ثم أشار لها نحوي مستفهمًا. فقالت:

– هذا صديقي المحامي الذي حدثتك عنه كثيرًا.

قال الرجل مرحبًا:

– يا أهلًا يا أستاذ.. يا أهلًا. كأنني أعرفك من سنين. كانت تتحدث عنك دائمًا.

شعرت بالارتياح يغمرني. وسألته:

– هل اصطدت جيدًا اليوم؟

– الحمد لله – قال الرجل – الحمد لله.. وأنا على وشك العودة.

قالت له:

– كنا نتمنى نزهة في البحر.

قال:

– على الرحب والسعة.. تعالا..

وقفزت هي إلى قلب المركب قبلنا، فضحك أبو العبد، والتفت نحوي مشيرًا نحوها بيده:

– هذه الشيطانة..

ثم أمسك بيدي يساعدني على الصعود، وبكثير من الجهد صعدت إلى المركب، حتى أبو العبد لم يبذل ما بذلت، مع أنه دفع المركب قليلًا نحو الماء قبل أن يقفز إليه، فأدركت كم الفارق كبيرا بيني وبينه.

كانت سلة أبو العبد ملأى بالسمك الطازج الذي فاحت رائحته فأدارت وجهها عنه وهي تردد: يا حرام.. يا حرام.. فألقى أبو العبد فوق السلة منشفة كانت بين يديه، ثم شد خيط المحرك، فزمجر.. وتحرك المركب صوب البحر.

تعثرت قدمي بشيء صلب، نظرت فإذا به جهاز لاسلكي، تجاهلته، بينما أسرع أبو العبد وألقى عليه صحنًا من القش، وفي ظنه أنني لم أره. أشياء غريبة هنا. لا. ليست غريبة. كل شيء أصبح واضحًا.. ولكن ما دورها في كل هذا. لا أعرف. وعدتني أنني سأعرف.. وتذكرت هؤلاء الشبان الذين خلفتهم وراء ظهري.. ترى هل ينجحون.. أم سيفلحون في البحر مثلما فعلنا عندما كنا شبانًا صغارًا؟ يأسرنا عبد الناصر بخطبه اللاهبة، وننام على وعود أحمد سعيد مذيع إذاعة صوت العرب الشهير.

كان أبو العبد قد تجاوز العقد الخامس، لكنه يبدو في بنية شاب في الثلاثين. لوحته الشمس وسكنت في تجاعيد وجهه، فبدا لي كأنه رجل من نحاس، عضلات ساعديه قوية. ورغم العروق النافرة في ظهر يديه، فإنه يبدو واثقًا من نفسه قويًّا، سألته:

– منذ متى تمارس مهنة الصيد يا أبو العبد؟

قال:

– من زمن طويل يا أخي. أعرف هذا البحر نقطة.. نقطة. أعرف متى تتجه الرياح شمالًا.. ومتى تتجه جنوبًا. السمك يمشي مع الريح، يصعد ويهبط حسب برودة الطقس ودفئه.. أعرف أين سمك السلطان إبراهيم الذي لا يرتفع نحو سطح البحر، بل يظل عميقًا.. وهو كما تعرف أغلى أنواع السمك.. لا توجد نكهة لحمه في أي سمك آخر.. طيب وشهي. وهو أيضًا أجود أنواع السمك.. لأنه يتغذى بالأسماك الصغيرة، يأنف من أكل الديدان، ولا يتلوث بما يطفو من قاذورات البشر.. أنا صياد

ماهر يا أخي.. أعرف مزاج كل الأسماك.. وأعرف متى أرمي الشبكة ومتى أرفعها، ومتى أغوص بسلتي في العمق.

وحدثنا أبو العبد عن قدرته في حبس تنفسه سبع دقائق يسمح له بالغوص عميقًا كي يضع السلة في المكان المناسب، وحديثه عن البحر أكثر شغفًا منها. قالت لي ذات يوم إن هذا البحر يلامس أرض الوطن. يافا وحيفا وغزة.. البحر نفسه الذي يشم زهر الليمون المنتشر فوق تلك الأرض الجميلة، الملأى بالتاريخ والمقدسات والماء والناس الطيبين، والتي – في غفلى من الزمن – سرقها اللصوص وتشبثوا بها.

وروى أبو العبد، والمركب يتهادى فوق الموج الهادئ. ورائحة البحر تملأ أنوفنا بالهواء النقي الذي افتقدته كثيرًا، أسطورة السمكة الحمراء التي هي الأم القديمة لسمك السلطان إبراهيم، فيقول أبو العبد: السلطان إبراهيم هو أحد سلاطين بني عثمان، حكايته مثل حكاية ألف ليلة وليلة. ظل يقول من لا يأتني بسمكة حمراء من الصيادين أعلق رأسه على باب قصري. وعجز الصيادون عن جلب هذا السمك.. لأن السلطان إبراهيم كل يوم يجلب إلى قصره صيادًا ويطلب منه سمكة حمراء.. وفي اليوم التالي يكون رأسه قد فصل عن جسمه وعلق على باب القصر. إلى أن جاء ذات يوم الشاطر حسن ابن الصياد الكهل الذي تعب من الصيد. وأدرك بحدسه الطفولي أن مثل هذا السمك لا بد أن يكون أطيب من كل الأسماك للحمه نكهة خاصة، ولكن كيف يستطيع أن ينقذ والده الشيخ من سيف السلطان إبراهيم؟! وكان قد تعلم الغوص من أبيه، وفي كل مرة كان يبحث في العمق عن سمكة حمراء دون جدوى.. وذات يوم عثر على سمكة تتخبط في القاع، فنغز ساعده بدبوس كان يضعه في فمه. فنفر الدم منها، وسرعان ما وضع فم السمكة على الجرح فراحت تشرب من دمه. ودبت فيها القوة فأفلتت من الشاطر حسن واختفت.. وذات مرة

غاص الشاطر حسن إلى عمق البحر، فإذا به يفاجأ بالقاع مليئًا بالسمك الأحمر.. فأثقل سلته بحجر وببضع أسماك صغيرة.. لم تمض دقائق حتى امتلأت السلة بالسمك الأحمر، فحملها إلى أبيه حملها بدوره إلى السلطان إبراهيم. ومنذ ذلك الحين كف هذا السلطان عن حصد رؤوس الصيادين، كما أصبح هذا السمك يحمل اسمه حتى اليوم.

حكاية حلوة، قال أبو العبد، ترووها للصغار، كما رويتها كثيرًا لأولادي، ثم قال: في كل مرة أرويها بصورة مختلفة، وأزيد عليها وأنقص حتى بت أنا نفسي.. أصدقها.

كانت تنظر إليه بشغف، ثم ما أن صمت قليلًا. حتى قالت له:

– حدثني عن الوطن..

ابتسم أبو العبد، ثم قال:

– هذه فتاة مجنونة يا أخي. تحلم بأرض بعيدة بعيدة.. والأحلام تموت مع اليقظة، لكنها تحلم وهي يقظة أيضًا، هذا النوع من الأحلام خطر، لأنه يؤدي بك في لحظة ما إلى الجنون. الوطن البعيد لا يعود بالأحلام..

ثم يلتفت نحوها ويتابع:

– هؤلاء.. ويشير نحو الحقل.. ثم يتابع:

– هؤلاء.. هم القادرون.. أما أنت.. فما زلت حالمة.. حالمة.

ضحكت. ولم تقل كلمة أخرى.. إنما سرحت بنظرها نحو الجنوب.. ولاح في وجهها قلق ما.. حاولت أن أخترق أفكارها متسائلًا: يا ترى.. بماذا تفكر الآن.

أبو العبد هو الآخر صمت، وراح يتأملها مليًّا، ثم يلتفت صوب الحقل الذي خلفناه وراءنا وراح يردد بهدوء على مسمعنا معًا:

– أنا الآن شديد الأمل.. هذا الأمل الذي افتقدته زمنًا طويلًا. الآن أراه ينمو كشجر الأرز، قويًّا، ومتشبثًّا بالجذور.. نعم.. نعم.. كان على هؤلاء أن يفعلوا ذلك منذ زمن طويل.

أدهشني الرجل الذي لم أتصور أن صيادًا مثله يمتلك هذا الوعي وهذه الثقة بالنفس.. ثم إنها التفتت نحوي وقالت:

عندما تحتاج شيئًا تعال إلى أبو العبد.

أين أبو العبد؟

ذهبت مرارًا إلى **السعديات بحثًا عن أبو العبد، دخلت ذلك الحقل مرارًا، فلم أجد أبو أحمد، ولا الرجال الآخرين، إلا أن بستانيًّا كان يعني بالحقل، رأيته هناك، سألته عن أبو العبد، وعن الشباب، وعن أبو أحمد.**

وفي كل مرة ظل يتهرب من الجواب. وعندما أكدت له أنني أعرف كل شيء، استغرب، وقال لي: عم تتحدث يا رجل.. ليس في هذا المكان كل الذين ذكرت.. من هو أبو العبد.. لا أحد يصطاد سمكًا هنا، من هو أبو أحمد. ومن هم الشباب.. ومن هي الفتاة التي تسألني عنها؟..

ومع تكرار زيارتي إلى هناك، صار الرجل ينفر مني:

- ألا تكف عن الحضور إلى هنا.. ألا تخاف.. هذه مناطق غير آمنة يا رجل.. هل أنت مجنون؟ كل مرة تأتي وتسألني عن أشخاص وهميين..

كنت أشعر أنه يكذب، وأنه يخفي عني الكثير، لكنني في الوقت نفسه خشيت، بهذه الأسئلة والتردد على المكان، أن أفضح سرًّا لا تريد هي أن أفضحه بمثل هذا الغباء.. فتراجعت عن أسئلتي.. وقلت له:

- لا.. لا.. ربما أنا أبحث عن أشخاص وهميين.

إلا أنني كنت أحس في لحظات خاطفة أن ثمة رثاء لي. وراء عيني البستاني.

في لقائنا الأخير، أحسست أنها مزمعة على الاعتراف بشيء ما، تكاد ترسم الكلمة على شفتيها ثم سرعان ما تبتلعها.

أذكر جيدًا..

هي أمامي الآن. بوجهها المضيء الحنون، وشعرها المضفور إلى طرف أذنها. فسحة جبينها الناصع، تنبئ بما يعتمل في داخلها. قطرات من العرق تلتمع عليه بغزارة. تمد يدها إلى علبة الورق وتسحب منها منديلًا وتجفف عرقها به. وأتردد في تشجيعها على الإفصاح، أتظاهر أنني منشغل بشيء ما، أو بطلب فنجان قهوة أو كأس ماء. أنا أيضًا انكشفت، ورحت أعرق من رأسي إلى أخمص قدمي. بل للحظة، انتبهت إلى يدي ترتجفان وأنا أحاول إشعال سيكارة. همست قريبًا مني:

- هل أنت مريض؟

قلت:

- ربما أنا تعب.

أحسست في نظرتها تلك اللحظة، كأن شيئًا يؤنبها، لكنها ظلت صامتة. ومدت يدها تلمس جبهتي:

– كأنك مرتفع الحرارة؟

قلت: دائمًا ترتفع حرارتي عندما أكون معك. أحبك. أتعرفين ذلك؟

– أعرف ذلك (تقول) ثم تضحك:

– حبك جميل.. تشعرني فيه أن الحياة جميلة في الحب وصحراء بدونه..

تصمت وهي تتأملني فيما ازداد ارتباكًا. ثم تقول:

– أتصدق.. أنني أشتاق إليك دائمًا.. أشتاق لأحاديثك.. أشتاق لتعابيرك.. هل حاولت مرة كتابة الشعر؟ (تسأل).. فأضحك أنا أيضًا. أقول:

– من يتعرف عليك.. من يحبك. لا بد أن يصبح شاعرًا.. أنت قصيدة..

تقاطعني:

– آ.. سأكتب قصيدتي بنفسي.. قرأت مرة حديثًا لشاعر يقول إن القصيدة الحقيقية تكتب بالدم.. لا بالحبر. هل قرأت شيئًا من هذا؟

– طبعًا قرأت.. هو يقصد أن تكتب بصدق.. من عمق التجربة.. ولا يقصد أن تكتب بالدم فعلًا؟..

– أعرف.. أعرف.. ما هذا التفسير الطفولي الذي تقوله.. هناك قصيدة وحيدة تكتب بالدم.. ويمكن للإنسان أن يكتبها مرة واحدة في حياته. وتكون وقفة عزه الأولى والأخيرة. هل تستطيع أنت أن تكتب مثل هذه القصيدة؟!

أحاول أن أعيدها إلى الواقع الذي أنا فيه، هي دائمًا تلعب معي لعبة القط والفأر، فأستفزها في الصدمة المباشرة:

– لا شك أن لك عددًا كبيرًا من المعجبين؟

تقول:

- أكيد.

أسألها:

- ألست معجبة بواحد منهم؟

يتغضن وجهها، وتشيح بعينيها بعيدًا، كأنها تريد أن تعترف لي، كنت أفسر ذلك أنها لا تود أن تؤذيني، وأفرح لهذا التفسير وأحزن في آن معًا. مرارًا حاولت أن أعرف مدى شعورها نحوي، إن كانت تحبني.. أم هي تجاملني؟ فتتهرب بذكاء، وبأسلوب يحيرني، فلا أعرف في النهاية، هل فزت منها بكلمة ترضيني أم لا، لكن بالتأكيد كانت ترتاح لي.. فمنذ خمس سنوات تسعى للقائي، وترتاح في الحديث معي، ونذهب معًا إلى الغداء عندما أدعوها، أو إلى نزهة على الشاطئ.. ما من مرة جاءت مصطحبة معها صديقة ما أو صديق ما.. دائمًا تأتي وحدها، وتذهب وحدها.. لكن هذه اللقاءات خلال هذه السنوات الخمس كلها تقاس بالدقائق والساعات.. أتذكر الآن.. لا يطول لقاؤنا ساعة أو ساعتين.. ثم تغيب طويلًا. كان كبريائي يمنعني من السؤال عنها في الجامعة إلا في فترات متباعدة جدًّا، فلا أفوز من زميلتها التي ترافقها غرفة المنامة بغير أجوبة غامضة:

- لا أعرف.. ربما هي مسافرة.. لا تقول لي.. لا تسمح لي أن أسألها. لقد تعودت عليها هكذا.. إنها فتاة غامضة يا أخي..

هذه زميلتها التي تراها أكثر من أي مخلوق آخر وتقول عنها إنها فتاة غامضة.. فكيف أنا الذي لا يراها إلا لمامًا.. ويعيش معها هذا الغموض الغريب؟!

أتذكر كيف كنت، أحاول دائمًا أن ألون أحاديثي معها بآراء في السياسة، بالذي يجري في البلد، بالمتناقضات التي تتحكم بالوطن.. لكنها تكره حديث السياسة وحديث السياسيين. لها رأي واضح تختصره بكلمات: السياسة كذب..

فمن الممكن، لعبة المصالح.. لف ودوران، ولعب على الحبال. يشترونك في الصباح ويبيعونك في المساء.

كانت تحب السفر. هكذا توحي لي، وعندما يطول غيابها أسألها أين كانت؟ فتقول: كنت مسافرة.. وأسألها: أين؟

كل مرة تقول لي في مكان ما. تارة عند أهلها، وتارة في قبرص لمدة أسبوعين.. تحب قبرص، تعتبرها جزءًا من الوطن.. الملامح.. الوجوه.. وتذكر لي أن ابنة لأبي بكر الصديق مدفونة هناك.. وتلعن الجغرافيا التي جعلت من قبرص جزيرة يونانية يتقاسمها اليونان والأتراك. فهي تشرب من مياه الوطن.. هل تعرف ذلك؟ لا أعرف.. نعم.. نعم.. إننا نشرب من نفس المياه ونسكن إلى جوار البحر نفسه الذي يحتضنها.. لا أفهم هذه الآراء.. ولا أرى شيئًا في قبرص له علاقة بنا.. لكنها تصر.. وتعود لتقول لي: إياك أن تصدق أن كليكيا تركية، الإسكندرون وأنطاكية سوريتان مهما كذب علينا التاريخ وكذبت الجغرافية.. وطننا جميل، وكبير، وجوهنا. دماؤنا.. كلها من معين واحد ونبع واحد وأرومة واحدة.. أم أنك تنكر ذلك؟ لا أنكر.. كيف أنكر ذلك؟ وهي التي تؤكده؟

كانت تتمنى أن ترى العالم وتزور بلاد الدنيا. كانت تقول:

- عندما أخرج سأحاول أن أزور كل عام مدينة ما.

فأداعبها:

- ولماذا لا أسافر معك.. ولو مرة واحدة..؟

فتجيب بكل عفوية:

- ولم لا.. لابد أن نسافر معًا ذات مرة.

- هل تعدينني؟..
- أعدك.

أستغرب، بيني وبين نفسي أن فتاة بمثل هذه الحيوية والجمال والشخصية القوية ليس لها أصدقاء أو صديقات من جامعتها، دائمًا وحدها.. وعندما تغيب، لا أعرف أين هي. ولا كيف أتصل بها.. لكنني على انتظار مستمر لعلها هي تتصل.. وكلما رن جرس الهاتف أتوقع أن تكون هي، ثم يخيب ظني.

كذلك، ما أن أسمع طرقًا على باب مكتبي الذي أستريح فيه بعض الوقت، وأراجع بعض الأوراق حتى يخيل لي أنها جاءت.. ثم يخيب ظني. كانت تجيء على غير موعد، وتجيء في أوقات لا أتصور أنها تجيء فيها. تحضر إلى المقهى غالبًا عندما أكون فيه، قليلًا ما جاءت ولم تجدني.

خيل لي مرة أن هناك من يراقبني من أجلها، وينقل لها أخباري وتنقلاتي. مرة فاتحتها بهذا الموضوع، فضحكت، وقالت:

- لا يخونني إحساسي. يقول لي إنك في المقهي، فأجدك في المقهى. يقول لي إنك في المكتب. فأجدك في المكتب.

لكنها عندما تغيب طويلًا تتصل بي لتطمئن علي، وتسامرني، وتسألني عن أحوالي. ثم سرعان ما تقول كلمتها الأخيرة: باي.. باي.. «بشوفك بعدين وتتركني ذاهلًا وسماعة الهاتف تبقى لحظات بيدي ولا أكاد أستوعب ما حدث في هذه الثواني القليلة، إذ أشعر أن كل ذلك كان حلمًا كالبرق وأنها لم تحدثني، إنما خيل لي أنني

سمعت جرس الهاتف ثم صوتها الساحر ثم باي.. باي «بشوفك بعدين» فلم أكن أستطيع للمفاجأة، أن أسألها: أين أنت؟ من أي مكان تتحدثين؟

في كل مرة، عندما تقول كلمتها: «بشوفك بعدين». لا أقدر على اللحاق بها لأسألها: أين.. ومتى.. وكيف؟ ويظل صوتها يرن في مسامعي كأعذب الموسيقى.. كلمات سريعة.. برقية.. متناثرة.. ثم.. ثم هذا الصمت المطبق.

لم تكن محادثاتها الهاتفية تشبعني، عاتبتها مرة على هذه الطريقة، وكعادتها، تضحك، ثم تقول:

- حتى تظل مشتاقًا لي.

- يا عزيزتي. يا سيدتي.. يا روحي الهائمة.. أنا دائمًا مشتاق لك. مشتاق حتى العياء.

- أعرف.. أعرف.. أعرف.

- إذا كنت تعرفين لماذا تعذبينني كل هذا العذاب؟!

- لا.. لا.. لا أحب أن أعذبك.. أنت غال عليّ وأثير لديَّ.. صدقني!

- إذا كنت كذلك بالنسبة لك.. فلم كل هذا الغموض؟

- بعدين بتعرف.. بعدين..

- ومتى هذا الـ.. بعدين.. متى؟

- سيأتي يوم وتعرف.. وستعذرني كثيرًا.

كل يوم أزدد تعلقًا بها، لم أعد أعرف ماذا يحدث في البلد. الحرب مستمرة. تستمر إلى ما شاء الله. وحياتي لم تعد ذات قيمة إلا بوجودها، وأفكر بأشياء قريبة من الجنون.. ثم أتراجع. مرارًا كنت سأذهب وأطلب منهم أنني أريد أن أصبح مقاتلًا، وأتراجع.

لم أعد أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، تداخلت في حياتي كالشرايين والدم والروح والأعصاب، إنها تتلبسني حتى صرت أسير عادتها، كأنني آكل على طريقتها، أشرب القهوة على طريقتها. أحاول أن أبدو غامضًا أمام أصدقائي الذين ألتقيهم في المقهى على طريقتها. يسألونني، فلا أجيب، أضحك. أتظاهر أن شيئًا ما أخفيه.. أتظاهر.. نعم. لكن هي لا تتظاهر. ثمة ما تخفيه ولا تريد أن تخفيه في آن وإلا ما معنى أبو العبد وجهاز اللاسلكي، ما معنى حقل الموز في السعديات وأبو أحمد ورجاله؟.. ما معنى أن يختفوا جميعًا في الوقت الذي أردت فيه أن ألتقي أيًّا منهم؟ غموض.. وأسرار. إلا أن الهدف أصبح واضحًا بالنسبة لي.

لكن ما هو دورها؟

ماذا تستطيع فتاة جميلة. شفافة، رقيقة مثلها، أن تفعل لهم؟

هل تتجسس؟

هل مهمتها جمع معلومات؟

هل تنقل رسائل بين هؤلاء وأولئك؟

لا أعرف، وعندما أريد أن أعرف، تقول لي: بتعرف بعدين.

إلا أنني صرت خائفًا عليها. خائفًا أن تنساق وراء رغباتهم، وتصل إلى النفق المسدود حيث لا تراجع. وتذكرت الآن حديثها عن القصيدة التي تكتب بالدم، إنها مؤمنة بشيء ما، ثمة سحر يشدها إليهم. قالت عنهم إنهم الشهداء الذين يكتبون قصائدهم بأرواحهم.. هل كانت تعني الذين يكتبون قصيدتهم مرة واحدة وإلى الأبد؟ أتذكر هذه الرموز، التي كانت، في كل مرة، توحي لي بها، كالشرارة. يا إلهي.. إنها تريد أن تثبت في روحي هدفًا ما. قضية كبرى.. إنها تشدني من حيث لا أشعر إلى المزيد من التعاطف مع قضيتها. كم أنا خجل من نفسي الآن لأنني بدأت أدركها متأخرًا، بل صرت على استعداد حقيقي كي ألتقي بأبو أحمد وأقول له:

ها أنا رهن إشارتكم.

في الفترة الأخيرة صارت هاجسي، أستيقظ باكرًا، وأذهب إلى كورنيش المنارة لعلي أراها، كما خيل لي ذات يوم أنني رأيتها. وأتمنى أن أراها بكل **قامتها وجسدها الممتلئ المشدود، أتمنى أن أسمع لهجتها المميزة وهي تردد أغنية شعبية.**

لا أرى إلا الفراغ. أذهب إلى الجامعة، وأتظاهر أنني أبحث عن صديق. فلا أترك مطعمًا أو كلية أو زاوية إلا وأطل عليها، لعل وعسى.. أتمشى إلى جوار جدار الجامعة في شارع بلس. أطل على مطعم فيصل. على الأنكل سام.. تنتقل نظراتي في وجوه الناس عسى أرى وجهها دون جدوى. دائمًا، هي التي تختار المكان والزمان، وأنا المنتظر الأبدي.

اعتدت ذلك، صرت أدرك أنها عندما تشتاق تحضر. كم صرت أعتني بنفسي، بمظهري ولياقتي وملابسي ونظافتي؟ أحاول أن أخفي الشيب الزاحف إلى شعر رأسي ملونًا إياه بقلم نسائي أسود.. أحاول أن أبدو أصغر من عمري، ثم أكتشف أنني أزيف نفسي. فأعود إلى طبيعتي. يجب أن تراني كما أنا، بأعوامي المقتربة من الخمسين. أنا الفاشل الذي لم يستطع بناء أسرة. لم يستطع الاحتفاظ بزوجة تخلت عنه في أسوأ الظروف، لكنني منذ دخلت هذه المرأة الغامضة حياتي، تبدلت عندي أشياء كثيرة، بل تلونت حياتي بالهاجس الخطر. وباهتمامات ما كنت أهتم بها من ذي قبل. واكتشفت أشياء كانت غافلة عني تمامًا. اكتشفت. كما ظلت تردد على مسمعي: إن الحياة وقفة عز فقط. دائمًا كانت تقولها لي، بأي مناسبة، وفي أي وقت.. الآن صرت أدرك حقًا إن الحياة وقفة عز فقط..

- لا يمكنك تبديل هذا الواقع الرديء.. ما لم يكن موقفك من الحياة موقف العزة والكرامة. رفض الاستبداد. رفض الانتهازية. التمسك بالوطن حجرًا وترابًا وشجرًا وبحرًا ورملًا.. التمسك به بأسنانك وأظافرك وألا تحيد عنه أبدًا.

هكذا، يومًا بعد يوم، يتسرب إليَّ هذا الكلام من شفتيها المذهلتين. وللوهلة الأولى كنت أعتبره مجرد كلام.. ثم أنتبه، إنها تعيشه قولًا وممارسة.. كنت أستغرب في البداية أن تكون لهذه الفتاة أهداف تختلف عن مثيلاتها، إن كن طالبات في الجامعة، أو كن غير ذلك.. ما من مرة سمعت منها شيئًا عن الزواج.. عن الأولاد.. عن بناء أسرة غير أن تكون سمكة.. وتلد كثيرًا من السمك.. الآن، لم أعد أستغرب، إنها معجونة بهاجس الوطن واستعادته مهما كلق الأمر:

- لا أحبك لا مباليًا.

أفرح:

- أنت تحبينني..

وسرعان ما تسحب كلمتها:

- أقصد.. أريدك أن تكون جادًّا في هذه الحياة.. أن تكون لك قضية تدافع عنها، وتستميت من أجل نصرها.

- أنت قضيتي!

- لا.. أرجوك. أعرف مدى أهميتي عندك.. أعرف كم تحبني.. هذا سبب اعتزاز كبير لي.. لكن أريدك أن تفهم أن ثمة ما يشغلني.. شيء ما أريد أن أنجزه وأريدك أن تساعدني.. لا تساعدني لمجرد أنك تحبيني. لا.. لا.. أريد لك قضية.. وكم أتمنى أن تكون قضيتي قضيتك.

في كل مرة، أتذكر، وينكشف رويدًا رويدًا هذا الغموض الآسر. الساحر.. أكتشف في تلك الشرارات الكهربائية التي تبثني إياها بطريقة مدروسة، حتى بت أتمنى أن أقول لها خذيني معك حيث تذهبين، وسوف أفعل كل ما تريدين.. قلت ذلك مرة، أو بما معناه، أو أوحيته لها.. لا أدري بأي طريقة.. ولكنها فهمت ورفضت.

– لماذا ترفضين؟

لأنني لا أريد أن أكون أنا قضيتك. فمن أنا.. سوى هذه الفتاة التي من ألوف الناس الذين يحملون الشعور نفسه بتحرير الوطن واستعادته بالقوة من سارقيه. أريد أن تكون لك قضيتك.. فربما أنحسر عنها أنا.. فماذا أنت فاعل؟ لمجرد أن ترغب بالانحسار معي فأنت تخون نفسك.. وتخون قضيتك. فعندما أشعر أنك تؤمن بقضيتي إيمانًا مجردًا من أي مصلحة. تكون فعلًا قد وصلت، وقد أصبحت الرجل الذي يجب أن أحبه.

لم أفهم هذه الفذلكة، أنا واقعي إلى حد أريد أن أقول لها باختصار: أنت قضيتي وكفى.

هي بالتالي، كانت ترفض أن تكون الغاية، وتردد:

– لن أمل.. سوف أحاول أن أجعلك أكبر من نفسي.. وأكبر مني.. إن عشق الأرض هو الأسمى.. عندما أدرك أنك ترفسني بقدمك إذا كانت قضيتك تقتضي ذلك.. عندئذ.. عندئذ فقط سأقبل قدميك.

يا إلهي..

هل هذا الكلام سمعته منها، أم أنني أحلم؟

كانت الأمور تختلط عليَّ فعلًا. فهي الليل، وهي النهار، وهي الحوار الداخلي. وهي أنا، أتناثر ذرات وتتناثر ذرات ونختلط ببعضنا كما يختلط الماء

بالعجين.. كثيرًا ما يحصل هذا الجنون، حيث الآن جالس على طاولتنا نفسها، أحاورها وهي ليست معي، ليست موجودة، وكأنها موجودة، بل هي أمامي بهذه الروح التي أراها تحوم حولي، وتجالسني وتعانقني، وتشرب القهوة معي.

أوه.

إنني مجنون.

كل حياتي معها أصبحت جنونًا حقيقيًّا.

ذات يوم، بعد هذا الغياب الطويل، كتبت لها رسالة بالبريد المضمون، كتبت على **المغلف اسمها، واسم الكلية. وصندوق بريد الجامعة.. أعيدت لي الرسالة مع عبارة:** «**غير موجود**» **بالختم الأحمر على المغلف. ازددت قلقًا. هل هذا معقول؟ هل هذا الاسم الذي أعرفه ليس اسمها؟**

ما زلت أحتفظ بالرسالة، مصممًا، ذات يوم، على تسليمها لها باليد، طالما عجز البريد عن الوصول إليها. ومرارًا، كلما جلست على هذه الطاولة، أعيد قراءتها وأكاد أضيف إلى سطورها الكثير، ثم أتركها على حالها. وأقرأ مجددًا فيها: «فليساعدني الله كي أعرف ماذا في جوف رأسك من أحاسيس ومشاعر. إنك المرأة الغامضة العصية على الأسرار، أنت هذا المنفى الصاعد في القلب كالسيف، قصة لا أعرف كيف تصل إلى حدود نهايتها، ثم أنت غير هذا وذاك، تنبضين في عروقي حركة الدم والحياة. أنت الرجاء الطاهر، كل ما حولي يضج، إلا في حضورك ينحني على الخشوع، أنت الفصول، وأنت الصبح الأخير، وأنت كل هذه الشموع المضاءة في المعابد، من خلال طهارتك النادرة، نحتمي من الذنوب والخطايا والانهيار، من خلال صفاء إيمانك أحتمي بك من الغدر والطعن الخفي وألسنة الوشاة. ومن خلال صبرك أعرف أن الله يمتحن إيمانك العظيم. وأعرف أنك ترفعين رأسك إلى الخالق متمنية

المزيد من العذاب كي تقدري على المزيد من الإيمان. وعلى المزيد من حب الوطن والناس الأبرياء. من أجل هذا أحبك. ومن أجل هذا أصحو في الليل مرارًا من أحلامي كي أشعر أنك مازلت معي في اليقظة والأحلام. في الصحو والنوم، في العشية والصباح.

ودائمًا إذ أتمشى على الشاطئ في أيام السلام، أرى احمرار الورد المطل من حدائق الجامعة فأتذكر احمرار وجنتيك لحظة الخجل.. كم من الأشياء تخجلك؟ كلما همست في أذنيك أحبك تخجلين.. أحبك. ألمس طراوة الحشائش الخضراء فأتذكر طراوتك. أسأل الرياح أن تهدأ كي أقطف لك باقة أزهار ملونة، لأنني أعرف أنك تحبين الأزهار البرية، تظهر على كف التراب الندي على كيفها، تتطاول فوق الأرض كأنها تحاكي النجوم والكواكب في نورها الطاغي.

رويدك يقولون.

آه لو يعرفون كم أنت رائعة ومذهلة، فأنا لا أستطيع أن أكف عن هذا الجنون لأنك النهر الذي لا يكف عن الجري فوق حصى الأرض، ولأنك الرمح الذي يعرف كيف يذهب إلى نقطة الوصل، ولأنك الحقل وتيجان السنابل، لأنك المدى البريء ولأنك الوطن الذي لا حدود له. لأنه الأمل المرتجى والوهم الراقد بين شفرة الرؤيا سكين الحلم، لا صوت يعلو فوق صوتك أيتها الناطقة باسم براءة الأطفال، ونقاء البحر، والنجوم المتلألئة. أيتها المنشدة جليل الشعر في العرائس، أيتها السيدة المتوجة بالقمر المضيء والشمس الدافئة. أيتها السيف الشجاع يشهر حده في وجه الخوف فيشقه نصفين.

أنت النبيلة تملأ الكون صدقًا وجلالًا وسموًّا. أنت العشب الظليل في الشواطئ البعيدة، وأنت لهب النار لحظة الصقيع، بك يضج الهواء بالعطر والروائح الذكية، أنا المهزوم أستعيد فيك رؤية النصر القريب، مغروسة جذورك كالشجر القديم، أغصانك

رايات. يا لحظة السيوف تضيء في أعناق الأعداء، يا سيدة الأحجار الكريمة، إذا هويت ذات يوم، لا تواريني التراب حتى أظل منتعشًا برائحة عباءتك تمر بعيدًا آلاف الأميال، وتمر قريبًا تلامس خيوطها أنفي.. فالغزاة مازالوا هناك.. ولا أعرف مدى صبرك على الثبات.

عيناك حصانة النرجس وهداية الطيور إلى السنابل، عيناك كنانة الرماح، هما الحكمة، وصليل السيوف وراء الرمال، هما الضوء والمدى الشاسع.

أحبك. شئت دائمًا، أم أبيت مترددًا. أحبك، أحبك الكلمة الأولى ولحظة التأمل في عينيك الناريتين، أحبك بين البكاء والبكاء، وفي لحظة الفرح لا أجد إلا فرح حبك. وسوف أظل في عهدتك كما الطفل في عهدة أمه، وفي الليل، وحدك التراتيل واحتراق الذاكرة، إذا ضعت في الصحاري، ففي ظلك يتفجر الماء، إنك الربيع البعيد وأنا عصا تمشي مع شيخها المجهد، المعرض للوقوع والانزلاق والسقوط، وما من يد تنتشله غير يدك، أنا العاشق لا أصغي إلا لهمسك وغضبك في آن. ففي حضرتك يلتقي الليل والنهار معًا. العتمة والضوء معًا، في حضرتك يمشي الماء صعودًا، وتتبدد الظلمات بين نعيم الآه واحتراقها. ويضاء الفصل الأول والأخير. وبين اللحظة واللحظة أقتبس كلمة من كلماتك كي أبدأ الكلام، ولحنًا من أغنيتك كي أبدأ الغناء. ولونًا من لوحتك كي أبدأ الرسم. وورقة من وردتك كي أزرع فيها الحقل ورودًا، وحبة من سنبلتك كي أشبع الأرض سنابل.

وكلما ومض بيني وبينك الغياب، اشتعل الحزن حنظلًا وطاف. ساد الشوك العوسج وقامت الأسوار.

جاءت الوحوش البرية تقتحم كتاب الحكمة فلا أستيقظ لوردة ولا أنام.

كل شيء مثل كل شيء. لا فرق بين الماء والحجر. بين الرمل والوردة. بين النمر والقط. بين النار والشجر. لا فرق بين الأسود والأبيض، بين الأخضر والأصفر. كل شيء يشبه كل شيء، وكل ما حولي يصبح رمادًا. ويبابًا، وصلبًا كالصخر يحيط بالجبال.

وأتضرع إلى الرب جاثيًا أن يحفظك من كل مكروه، وأن يجملني بالصبر حتى أبقى معك.

وإذا يومًا عدت سأحبك من جديد، وأحبك للمرة الأولى، وللمرة الألف.. سأحبك غامضة وواضحة، سرًّا خبيئًا وجوهرة فوق كل كف. وأحبك فأين أنت الآن».

وأتمنى لو قرأت هذه الكلمات. ولما شرعت في كتابة هذه السطور، رحت أتخيل ردها. كان لابد أن ترد. أن تقول لي من هي؟

كيف أعادوا لي الرسالة؟

كيف لم تستلمها؟

هي رأتها وعرفت أنها مني فطلبت إعادتها؟ كانت دائمًا تخاف أن تضعف أمام توسلاتي وإغرائي لها بالبوح. وكنت أشعر دائمًا أنها حريصة على عدم الارتباط.

هل بسبب الفارق الكبير في العمر؟

لو كانت عندي ابنة لكانت الآن في عمرها.

هل بسبب سلبيتي للقضايا المصيرية التي لم تعطني إلا الخيبات.

هل بسبب أحاسيسها غير الواضحة تجاهي؟

لا أدري!

لقد ابتدعتني من جديد، وصرت مهيأ في كل لحظة لاستقبالها، أو اللقاء بها، صرت **لا أخرج من أمام المرآة إلا وأنا راضٍ عن شكلي وملابسي، صرت دائمًا أرغب بالظهور أمامها في أحسن حالاتي. غيرت أسلوب حياتي، شغلتني بها عن الدنيا.**

كنت أتصور أنه لابد من الفوز بها آجلًا أم عاجلًا، لكن ما من مرة حاولت الإفصاح عن رغبتي بمشاركتها الحياة، حتى كانت تتهرب، وتغير دفة الحديث، أو تستأذن منصرفة، وتتركني في حيرة قاسية، وأعلل النفس أنني سأفعل ثانية، لكن في كل مرة تختلق ما يقلب الموضوع رأسًا على عقب. فأقول في نفسي لا بد ذات يوم من الوصول معها إلى نتيجة، لأنها لو كانت ترفضني لما استمرت في هذه اللقاءات، ففيها من الجمال وقوة الشخصية ما يجعلها محط إعجاب وطمع عشرات الشبان في مثل عمرها. إنها مرغوبة بصورة مستمرة، وملفتة ما أن تدخل أي مكان في أية لحظة حتى تشغل الناس بها، وأنا لشدة ولهي بها ما عدت أستطيع التحكم بالوقت، عندما تكون حاضرة، أكون قد اختزنت آلاف الكلمات، واختزنت آلاف الوسائل من أجل إقناعها بي، وعندما تحضر يتبخر كل شيء وأصبح أسير حوارها، أسير أسئلتها. وبين الحين والآخر تناقشني في القضية الوطنية، تريد انتزاعي من عدميتي ولا مبالاتي بما يحدث في المدينة، غالبًا تسألني عن رأيي بهذه الحرب الناشبة بقسوة في البلد، فأقول لها إنها واحدة من المؤامرات لتشغل العرب عن قضيتهم الأساسية، تبارك هذا الرأي، لكنها تعود لتقول: لا.. لا.. إنها حرب الظالم والمظلوم وهؤلاء الذين تزدان جدران الشوارع بصورهم – تكرر – هم الرائعون الذين يسطرون للمجد أجل القصائد بدمائهم وتضحياتهم.

وتلتفت، أحيانًا، غاضبة نحوي. حتى غضبها صرت أحبه، وتقول لي:

– متى ستفهم..؟ متى ستخرج من قوقعتك؟ من هذه السلبية المقيتة؟

أقول لها مداعبًا:

– أنا من جيل المهزومين الذين لم يتذوقوا نصرًا في حياتهم، إننا مستسلمون لليأس، واليأس من كل شيء.

يلتمع بريق في عينيها، وتزداد غضبًا:

– قلت لك النصر آت.. إن النصر آت.

– كم أنت مخدوعة يا حبيبتي.. هل تتصورين أن بضعة مجانين شعراء مثلك يمكن أن يحققول النصر؟ إنكم تشبهون جميعًا إيذاء رصاصة لجدار صلب. هذا الجدار يا سيدتي بحاجة إلى آلاف الأطنان من المتفجرات لاقتلاعه من جذوره.. أنتم حفنة من الخياليين السابحين في وهم الانتصار الكبير.. وهذا العدو يقف إلى جانبه ثلاثة أرباع العالم إن لم يكن العالم كله. لا شيء قادر على اقتلاع هذا السرطان غير أن تكون هذه الملايين العربية يدًا واحدة وأنت ترين أن هذه اليد ممزقة الآن.. والعرب يقتتلون مع بعضهم البعض في كل مكان. إن حياتنا ملأى بالاستبداد والظلم والاغتيال والغدر. فأي أمل تتحدثين عنه.. إنك واهمة. وحرام أن يدفع كل هؤلاء الشبان حياتهم من أجل هذا الوهم.

ترفع يدها معترضة:

– لا.. لا تغرقني في اليأس.. إن تضحيات هؤلاء تجعل القضية حية في أذهان الأجيال. لا تموت القضية عندما يسفح على جوانبها الدم. يجب أن تظل صلبة وموجودة في الذاكرة. إذا لم نطعم نيرانها بدمائنا فسوف تنطفئ وتدوسها أقدام الغزاة إلى الأبد. أنا مقتنعة أشد الاقتناع أن كل سقوط لشهيد من شهدائنا هو اقتراب من الأرض، خطوة ثانية نحو التحرير، إنني الآن في حالة من الوجد، كما لو أنني أشاهد

بعيني هاتين يوم العودة.. يوم استعادة الجليل واللطرون وبئر السبع وحيفا ويافا، قبل القدس ورام الله وغزة. إنني أرى جحافل الشعراء تتقدم بكل شجاعة، لنستعيد بيوتنا التي مازالت مفاتيحها في جيوبنا.

هذا الحماس يغلب كل قناعاتي، فهي ترى الوجه المضيء للقمر، ومن حقها أن تراه هكذا. أما أنا فلا أرى إلا الوجه الآخر.. الوجه المظلم المعتم، الرمادي. اليأس الذي سيغمر حياتنا العربية إلى مئات السنين ما دمنا بمثل هذا التفكك والانهيار والتمزق، والتلطي في الزوايا ليغدر بعضنا ببعض. هي الشمس المشرقة الشابة الملأى بالطموح. وأنا الشمس الغاربة التي كانت لها ذات يوم أمنياتها وطموحاتها أيضًا. فإذا بسيف الهزائم ظل يضربني على ظهري حتى أدماه، فصرت أهرب في كل اتجاه، قبل أن يطول عنقي، فيجعلني أموت محني الرأس..

أين هي الآن؟

وأنا أسأل، كنت قد قررت عدم مفاتحتها بأي موضوع عن ارتباطنا، وتركت للزمن أن يحل المشكلة. لكن الأمل في القلب كان عذبًا وشفافًا، فطالما أنها المهتمة بي. لابد أن يتحول هذا الاهتمام المتفرق إلى اهتمام كلي. لابد أن أكون أنا رجلها وأب أولادها.

هل كان قدري أن تتركني الزوجة الخائنة حتى أتعرف على هذه التي ملأت عالمي كله حنانًا، كي تكون أمًّا لأطفالي؟.. ما أحلى هذا الحلم وما أعذبه.

وتذكرت أن زوجتي لم تكن تستطيع الإنجاب ما لم تخضع لعلاج طبي طويل، وبالفعل شرعنا بذلك قبل أن تتخذ خطوتها في تركي جانبًا واللحاق بعشيقها المقاتل،

ورب ضارة نافعة. الآن، أدرك، كيف ترسم الحياة أقدارنا. الآن، وأنا أشتهى ملامسة هذا الجسد الفائض بالحيوية والحب والحنان، كيف كنت أحيا من قبل مع تلك المرأة الهلامية المستبدة، التي ما ربط بيننا حب، وما عقد بين قلبينا حنان. كثير من الأمور تحدث على هذا الشكل، كل رجل يرغب بامرأة مثلما كل امرأة ترغب برجل... لكن ما أكثر الرغبات الخائنة التي تبدو للوهلة الأولى وهجًا ثم تنام.

رغم أن لا حل مع الزوجة الخائنة إلا الطلاق، لكن فراقها كان طعنة في كبريائي. سبع سنوات عجاف ونحن في بيت واحد تحت سقف واحد، لا أشتاق لها ولا تشتاق لي، مجرد واجبات نتبادلها على طاولة السفرة، أو في غرفة النوم. أو أمام الأهل والأصدقاء..

أتراها كانت تخطط للغدر بي أم أنا السبب؟

هل أنا السبب؟

وأتذكر.. كانت تشغلني القضايا والمحاكم والقوانين، حتى كدت أنسى أن عندي امرأة في البيت، يجب ألا أحرمها متعة الحياة.. نعم أعترف.

هل أنا السبب؟

كانت الملفات رفيقتي حتى في فراش النوم، أحملها معي في الصباح وأعود بها في المساء. وكانت تحاول أن تقتلعني اقتلاعًا عندما ندعى إلى سهرة أو حفل عشاء.. وغالبًا أعتذر، وأتركها تذهب وحدها.. ثم انتبهت أنها لم تعد تهتم إذا رفضت الذهاب أو قبلت. لقد شقت لنفسها حياة أخرى ادعيت أنها الخيانة.. ربما لم تكن كذلك أبدًا، ولعلي كنت ظالماً، وفي بدايات الحرب، بدأ عملي يتقلص ولكن بعد فوات الأوان، فقد أصبحت شيئًا كريهًا بالنسبة لزوجتي، حتى باتت تنتقدني علنًا، وتقرف من قبلتي: «رائحة فمك كريهة.. لماذا لا تذهب إلى طبيب الأسنان تصلح

أسنانك؟» وعندما شرعت أقبل ملاحظاتها وأذهب إلى طبيب الأسنان، وأدعوها إلى العشاء.. وأشجعها على السهر معًا.. كان الطير قد أفلت من القفص.. ولم تعد كل هذه التوافه تفيد شيئًا.. لقد أصبحت ثقيل الظل عليها، إن كنت في البيت، أو في الخارج. وكانت الحرب قد جعلتنا أسرى بيوتنا، نحن الذين لم نختر أن نكون إحدى ضحاياها. من هنا بدأ عذابنا معًا. فمن الصعب أن يعيش متكارهان تحت سقف واحد. ولعل سعادتها أنها وجدت البديل في ذلك المقاتل الذي يفور شبابًا واعتزازًا.. حسنًا.. أما أنا فأين هي سعادتي.. ويوم هجرتني وحيدًا.. وتم كل شيء بسرعة فائقة. أدركت. ولكن بعد أن سبق السيف العذل.. وها أنا وحيد تأكلني العزلة، وتشد الحرب أنشوطة الوحدة حول عنقي فأكاد أختنق. إذ باعدت الحرب بين أبناء المهنة الواحدة، حيث كان لي أكثر من صديق.. ولم أتآلف مع الجيران إلا قليلًا. وحده الدكتور سعيد كنت آنس إليه، لكن الأطباء هم وحدهم الذين كانوا أكثر انشغالًا في الحرب. والدكتور سعيد طبيب الأعصاب، بات مشغولًا ليلًا ونهارًا، إلا بعض ساعات الصباح الأولى، حيث صرت بعض الأحيان أرافقه فيها رياضته الصباحية على الكورنيش عندما يكون القتال متوقفًا، لكنني ولا مرة كشفت لسعيد همومي اليومية لا منذ كانت زوجتي معي. ولا عندما هجرتني.. ولا عندما شاء القدر أن أذهب إلى ذلك الاحتفال الوطني. فإذا بها إلى جانبي، ومارسيل خليفة ينشد بصوته القوي:

أناديكم

أشد على أياديكم

وأبوس الأرض

تحت نعالكم

كان الدكتور سعيد يروي نتفًا من انهيار أعصاب مرضاه، وكان يقول لي إن الناس تقترب من الجنون، ليس وحدهم القتلى والجرحى ضحايا هذه الحرب.. بل

الناس العاديون، الناس الذين لا ينامون الليل ملء جفونهم، هؤلاء القريبون من خطوط التماس، والنازحون من بيوتهم والفاقدون لأعمالهم كل هؤلاء مرضاي. إن عيادتي تزدحم بهم، الأم التي ذهب ابنها ولم يعد، والأب الذي خطف ابنه الوحيد، والرجل الذي فقد تجارته ومحله وكل ما ادخره.. البيوت التي هدمت جعلت أصحابها يهيمون على وجوههم هنا وهناك.. ما كان يخطر ببالي عندما تخصصت بطب الأعصاب، أن انشغل ذات يوم، مثلما أنا مشغول هذه الأيام بهؤلاء المساكين الضحايا الحقيقيين للحرب. القتيل يذهب إلى القبر.. الجريح يشفى.. أما هؤلاء فمن الصعب شفاؤهم... عندما يكون الجرح داخل الجمجمة فإذا أشياء كثيرة تزول معالمها، وحياة أخرى تتداخل في عقول هؤلاء. الهذيان أقله والجنون أغلب الأحيان. فالأم التي جاءتني قبل أيام برفقة أخيها. كانت تضحك وتبكي في آن، تحملق بي، تحملق بكل شيء في العيادة. ثم تتجهم وتصرخ بي: أيها الوحش.. وتحاول انتزاع نظارتي.. فيبعدها شقيقها عني وهو يحاول أن يعتذر. إلام الاعتذار. أعرف. لقد اعتدت هذه المشاهد.. اعتدتها. ماذا في الأمر؟ يقول أخوها دامع العينين: إنها هكذا. منذ هدمت القذيفة بيتها.. أولادها الثلاثة وزوجها دفنوا في غرفة واحدة، كانت تصنع القهوة لزوجها الذي كان يداعب الأولاد.. ثم فجأة اندثر كل شيء.. ويقول أخوها: تركت الملجأ عندما قالوا لي إن بيت أختي أصيب. ركضت فوجدتها بين الغبار والجثث والدم. خيل لي عندما رأيتها تنبش بأظافرها الركام المتهدم أنها الصدمة.. ثم تصحو منها، لكن أسابيع مرت وهي تزداد صراخًا وجنونًا.. تريد أولادها يا دكتور.. تريد زوجها... حملوهم نتفًا من اللحم والدم وواروهن قبرًا واحدًا وعلى عجل.. وكانت المدينة وقتذاك كتلة من النار.

– وماذا حصل يا سعيد؟

– حقنتها بمهدئ قوي، وأعطيت أخاها روشتة باسم حبوب مهدئة تستعملها لتنام. نتحايل على المريض كثيرًا.. لأن مرضه حالة نفسية وليست جسدية.. مثل الالتهاب أو الحمى أو القرحة المعدية.. أو ذبحة قلبية.. إلخ.. إن الحالة النفسية أشد خطرًا وأشد مرارة.. قد تتشابه الحالات. لكن علاجها عند هذا الشخص يختلف عنه عند شخص آخر. خذ مثلًا ذلك الطالب الجامعي الذي حشرته الحرب وهو عائد إلى منزله في مدخل إحدى البنايات ثلاثة أيام متوالية لا يستطيع الخروج ولا الحركة وكلما مد رأسه مستطلعًا، رأى الخراب والقذائف والصواريخ تزعق مولولة باحثة عن شيء تصطدم به. لم ينم.. لم يأكل شيئًا، لم يشرب ماء.. لم ير إنسانًا ولا قطة ولا جرذًا. زاوية على قد جسمه والرعب الشديد يحيط به.. وعندما خرج سالماً مهرولًا نحو بيته نام.. وظل ينام، كلما أيقظوه عاد لينام. وجاءوا إليَّ به. وصار عليَّ أن أوقظه جيدًا بالحبوب المثيرة للأعصاب والموقظة للخلايا. حالتان متعاكستان كما ترى.. فكيف العلاج؟ إنني أقع في الحيرة، وكثيرًا في الحزن على هؤلاء الناس، الضحايا الذين لا يدخلون في أرقام الضحايا الآخرين القتلى والجرحى. عندما يكون هناك عشرة قتلى ومائة جريح، فمقابلهم ألف من ضحاياي الذين يلجأون إليَّ للخلاص.

حالات من انهيار الأعصاب، والجنون، والخوف العصابي، والتخيل المتطرف. هل تتصور إنسانًا سيظل يعيش حياته وهو يتصور أن شخصًا ما يلاحقه بمسدس يريد اغتياله؟ وليس هناك في الحقيقة لا مسدس ولا من يلاحقه. كيف تشفي إنسانًا من هذا النوع وتعيده إلى حالته الطبيعية؟ إن شعبًا بكامله ينحدر نحو الجنون... هل تتصور هذا؟ وقد يلحقنا البل يا سيدي.. لا أحد سينجو.. صدقني.. والذي يعيش يومه جيدًا في هذا البلد هو الذكي.. فما أدراك أن الغد آت، قد يأتي وقد لا يأتي أبدًا.

إن الموت يحصد الجميع بدون استثناء. وأكثر ما يحصد الموت هم هؤلاء الشبان الذين يتصورون أنهم يقاتلون من أجل الوطن.. وهم في الواقع مثل المجنون الذي يهدم بيته فوق رأسه بيده. هل سألت أحدًا من هؤلاء لماذا يقاتل؟ وابني واحد منهم.. إنهم الببغاوات الذين يرددون على مسامعك أقوال زعمائهم وأسيادهم: الوطن.. العدالة.. شعارات.. شعارات. كل يوم تتبدل هذه الشعارات. ومن كان اليوم خائنًا سيكون بطلًا في الغد.. ومن كان بطلًا ستكتشف أنه عميل، هي هكذا الحروب.

ما أكبر الفرق بين آرائها وأراء سعيد، تقول إنها حرب ظالم ومظلوم، وتقول دخلناها لندافع عن المظلوم.. الثورة يجب أن تكون نصيرًا للمظلومين أكانوا في الوطن أم في الخارج. إذا أتيح لي أن أقاتل إلى جانب أي ثورة تقاتل ضد الظلم، والطغيان في العالم سوف ألتحق بها فورًا.

لا أميل لا إلى كلامها الطموح والخيالي. ولا إلى كلام سعيد الواقعي، هي المؤامرة تعصف بالجميع، مرسومة بدقة، لا يحرك أحد إلا داخل مربعات الشطرنج.. وأنا أمام هذا الحدس اليومي الذي يجعلني أرى ما لا يراه الآخرون، أشعر أن حياتي كلها أصبحت لها ولهذين الكهلين المنزويين في جبلهما.. هي دائمًا، حيثما تلفَّت، أجد نفسي منقادًا إليها. ما أعذبها.. هذه الحبيبة الغائبة الحاضرة، الموجودة، وغير الموجودة، حتى عندما نكون معًا روحًا وجسدًا، أشعر كأنها ليست معي.. وكأنني في حلم، فأحس يدي النائمة في راحة كفها كأنها ليست مني.. وكأنني أمسك بيد ملاك.. شكله شكل إنسان، لأن يدي تعبرها كما تعبر فراغًا في هواء. هكذا دائمًا، وحلم الامتلاك.. لا.. لا.. ليس حلم الامتلاك. بل حلم العطاء، الاندماج الكلي والالتحام حتى أصبح بها يا أنا.. هذا هو الحل.. وليس سواه.. ولكن أين هي الآن؟

أين هي الآن؟

أطرح هذا السؤال كأنني أصرخ في برية.

كنت أخشى من الإلحاح حتى لا تنفر مني. هكذا بت منتظرًا إياها على مدار الساعة، تعرف بيتي من الخارج. لم تطلب مني مرة واحدة أن تراه، ولم أطلب أنا منها أيضًا. لأنني كنت أخشى أن تفسره تفسيرًا خاطئًا. وهي تعرف أنني وحيد، سألتني مرة عن زوجتي.

قلت لها: طلقتها قبل أن أعرفك بزمن. وخشيت أن أروي لها كل شيء، فيكون ذلك المقاتل الذي خطف زوجتي مني، واحدًا من هؤلاء الذين تصفهم بالشعراء، والذين يكتبون القصيدة بدمائهم. لا أدري.. ولا ألومه.. والآن، لا ألوم زوجتي أيضًا. الحق علي، أنا المذنب، أعترف. لكنني لم أعترف لها بأي تفصيلات. طلقتها، لم نكن منسجمين.. وكان ردها بسيطًا. فقالت:

- يحدث ذلك كثيرًا. يحدث ذلك كثيرًا. ولكن كم أمضيتما معًا؟

- سبع سنوات.

فتساءلت:

- سبع سنوات ولم يحصل أي انسجام؟!

قلت:

- ربما حاول كل منا ذلك.. لكن في النهاية فشلنا..

كان ذلك مرة واحدة، ثم كفت عن السؤال عن حياتي الخاصة، العموميات تعرفها. محام وقضايا، والمحاكم توقفت عن العمل بسبب الحرب، وأنا أتردد على

المكتب لأشعر أنني مازلت أعمل. لعلي فكرت كثيرًا أن أبرق للشركة التي أمثلها في البلد شاكرًا لأنها أبقت على مرتبي حتى الآن.

مرة واحدة، قبل اللقاء الأخير، تمنت عليَّ أن نسهر معًا في حفل عشاء راقص. فرحت فرحًا بالغًا، ودعوتها إلى مطعم أنيق على شاطئ البحر ظل يعمل رغم كل ما حدث في المدينة، وظل محافظًا على مستواه.

هي التي رتبت كل شيء. قالت إنها ستنام عند انتهاء السهرة عند صديقة لها، ولذلك مسموح لنا بالسهر حتى نتعب، شربنا، وأكلنا، قبل أن ننتقل إلى حلبة الرقص التابعة للمطعم. حيث الأضواء خافتة، والساحة ملأى بالراقصين والراقصات، رمت رأسها على كتفي فغمرتني سعادة لا توصف، كانت تتمايل معي بطراوة.. كأن اللحن ألف منسجمًا مع خطواتها من دون الآخرين جميعًا. كانت ساحرة، وكنت أتابع خطواتها مرتبكًا، كانت تحركني حولها كدمية، تبتعد، ثم تلتصق بي، تدور أمامي وهي ممسكة بيدي دورة كاملة، ثم تعود وتمسك بي.. كانت نشوى، وكنت فرحًا بنشوتها. رأيت الفرصة مواتية لأطرح عليها السؤال الذي ظل يشغلني زمنًا طويلًا من دون الفوز بجواب سألتها:

– أتحبينني؟

شدتني إلى صدرها، وحركت فمها بنغمة لن أنساها ما حييت تدل على الإيجاب، خشيت أن يكون ذلك من تأثير الجو.. فكررت السؤال:

– أحبينني؟

ابتعدت عني قليلًا وحدقت إلى وجهي.. كان كل ما فيها هذه اللحظة يقول نعم، عيناها الملتمعتان ببريق فرح، وجهها، شعرها المتهدل على جبينها، فمها،

شفتاها، حتى يدها التي راحت تضغط على كتفي ونحن نتحرك ببطء على نغم الموسيقى.

أحسست تلك اللحظة أنني طير أبيض، وأنها حمامة بيضاء، وأننا معًا، فردنا أجنحتنا وحلقنا في فضاء رحب. أخذتها إلى صدري ورحت أقبل وجهها قبلات مجنونة وهي تحاول أن تزوغ من بين يدي بحنان.

عندما جلسنا معًا إلى الطاولة، ابتدرتني قبل أن أتفوه بكلمة واحدة:

– إياك أن تقول شيئًا.

ثم صمتت، وظللت أنا أيضًا صامتًا، مادًّا يدي على الطاولة والأخرى مستندة إليها. تأملتني لحظات متتالية، وأنا أنتظر منها أن تبدأ الحديث. ظلت صامتة، بل لوهلة ما، ارتسم حزن على وجهها نادرًا ما رأيت مثل عمقه ونزفه. مدت يدها إلى يدي. وراحت تلامس ظاهرها بباطن راحتها. فسحرتني سحرًا أخاذًّا، وغيبتني عن العالم، كأنني وإياها نجمتان، غيمتان في البعيد، نبعا ماء يتحدان في مجرى واحد. كأن تلك الظلمة الهادئة تفتح لنا سماء من نور، وكأننا نخرج معًا من الخوف إلى الاطمئنان، ومن الجحيم إلى الحقول الخضراء. هي أيضًا، بعد ذلك همست:

– ما أجمل هذه الليلة؟

خرجنا بعد منتصف الليل، وفي السيارة، ونحن ننهب شوارع المدينة الراعبة، أوحيت لها أن تذهب معي.. فرفعت سبابتها إلى فمها وأشارت:

– هس.

ثم أعطتني عنوان بيت صديقتها.. قائلة:

- خذني إلى هناك.

أوقفنا حاجز للردع. ثم سرعان ما ابتسم لنا الجندي ابتسامة عذبة، وأشار لنا أن نمضي. وأمام بيت صديقتها، قبلتني من خدي، وانفلتت من بين يدي كغزالة.

بعد ذلك بأيام، كان اللقاء الأخير. وعلى هذه الطاولة بالذات، وفي هذا المقهى، وهذا المكان بالذات.. ثم غابت هذا الغياب الطويل.

اليوم تلو اليوم، والأسبوع تلو الأسبوع، شهر.. شهران وأنا أحترق. أسأل عنها خدم المقهى، والأصدقاء. وطلاب جامعتها، هنا وهناك، دون أن أحظى بجواب يهدئ من قلقي وعذابي.

أترى كانت تلك الليلة الراقصة ليلة الوداع؟
هل خططت كي تكون تلك الليلة آخر لقاء؟
هل أرادت أن تترك لي أجمل ذكرى.. ثم تتخذ قرارها وتبتعد؟
لم ألمها.

دائمًا كنت أقول في نفسي إنني لست قادرًا على إسعادها، إنها فورة الصبا والشباب، فكيف يلتحم الربيع بالشجرة اليابسة؟!

لكن الظنون ظلت تلاحقني، ربما ذل الرجل الغامض انتزعها مني أخيرًا. وربما تزوجت.. ولعلها سافرت إلى أهلها دون عودة..!!

انتبهت إلى تأخر الوقت. المقهى خلا من رواده وأنا وحيد. خادم المقهى وحده كان يرمقني بحزن. لعله يعرف ماذا يجيش في خاطري الآن.. ظل فترات متقاربة يحاول أن يقول لي شيئًا ثم يتراجع. كان وقت إغلاق المقهى قد حان.. لكن الخادم لم يبد

أي تـأفف. بـل اقـترح علـيَّ فنجـان قهـوة.. ابتسـمت للرجـل.. أعطيتـه ثمـن قهـوتي وانسحبت.

في الطريـق، كـان ثمـة شـبان يلصـقون علـى الجـدران ملصـقًا جديـدًا، كنـت مشغول الفكر بها، فلم ألتفت إليهم. فبيروت تودع كل يوم عشرات من شهدائها.. ها هي جدران الشوارع تزدان بصورهم.. وأتذكر كلماتها:

– إنهم الشعراء الذين يكتبون قصائدهم بدمائهم. هؤلاء هم الشعراء الحقيقيون..

فعلًا.. منذ ذلك اليوم صارت صورهم تلفت نظري. صرت أعرف كل يوم أن هـذه صـور جديـدة لشـهيد جديـد، وهـذه الصـورة استشـهد صـاحبها البارحـة. ودائمًـا كانت جدران الشوارع تمتلئ بصور جديدة لشبان بعمر الورد، وكنت أتساءل كيف يستصرخون الحياة إلى هـذا الحد؟.. وهـل تستحق هـذه الحرب أن يمنح شـاب حياتـه لها. مع أنه لم ير من الدنيا شيئًا.. وكنت أقول لنفسي لو كنت مسؤولًا عن حرب ما، لا أسمح للشباب الاقتراب من نارها وجحيمها. بل أسمح للكهول والشيوخ أمثالي أن يكونـوا وقـودًا لهـا.. فهـؤلاء ذاقـوا الحيـاة مرهـا وحلوهـا. وإذا قتـل واحـد منهـم فلـن يكـون مأسـوفًا عليـه. أمـا هـؤلاء.. هـؤلاء القصـائد الجميلـة الطريـة الـتي مازالـت غضـة العود كيف تندفع إلى النار حتى الشهادة؟!

ذات مرة، عبرت لها عن خواطري هذه، فصرخت بي:

– لماذا لا تكون أول الكهول المندفعين لتدافع عن مبادئك؟.. افعل يا رجل.. افعل شيئًا هامًّا في حياتك.. كفاك لا مبالاة.. تحرك، الحياة وقفة عز فقط.. أولى بك أن تموت شـهيدًا لقضيـة مـن أن تعيـش جبانًـا.. ثم، مـا هـذه الحيـاة، إذا لم نعـش فيهـا مـن أجل قضية عظيمة؟ هل الحياة أكل ونوم وشراب ونساء؟ لا.. هـذه «زبالة» الحياة.. صدقني عندما تؤمن بقضية وتدافع عنها إلى حد الاستشهاد تشعر بقيمتك الإنسانية،

تشعر أنك تمتلك شيئًا عظيمًا لا يقدر بمال. لا ليس هؤلاء أصحاب المصالح والعمارات والمعامل والمطاعم هم السعداء بمالهم.. بل نحن.. نحن فقط السعداء بمبادئنا.

كانت تبهرني بهذا النوع من الكلام، حتى بت الآن أكثر إلحاحًا، بالذهاب إلى «أبو أحمد» وأضع نفسي بين يديه، على السلاح، ويدفع بي إلى عملية انتحارية في الجنوب، أحلم الآن أن أصاب، وأن يحملوني إلى المستشفى، وتجيء هي لتعودني فأموت بين يديها. يا لهذا المشهد العظيم، لو يحدث.. عودي يا حبيبتي.. عودي إليَّ لبضعة أيام فقط، فقد قررت أن أكتب قصيدتي الوحيدة.

وتخيلت أي صورة ستختار لي لتكون ملصق شهادتي. كانت تحب صورة لي بثوب المحاماة وأنا في المحكمة. حسنًا، إنها صورة ملونة جميلة، التقطت لي قبل عشر سنوات، وأبدو فيها شابًا ممتلئًا بالحياة، ستختار هذه الصورة بالتأكيد. وتصبح ملصقًا يملأ شوارع بيروت.

وحانت مني التفاتة مفاجئة نحو ملصق جديد، ثم مرة ثانية عدت ونظرت إليه.. وأحسست بهاجس مرعب.. اقتربت نحو الجدار.. فإذا بالملصق صورتها.. صورتها، وخلفها زوبعة حمراء بلون الدم.. صورتها مبتسمة.. وهي تحدق بي بعينين عذبتين.. هي.. يا إلهي.. إنها هي.. هي.. وهرولت.. كالمجنون، لا ألوي على شيء.

ظللت أيامًا طويلة لا أصدق ما حدث.

وذات يوم قرع الباب وسلمني شاب أسمر في حدود العشرين رسالة كتب اسمي **على مغلفها ثم انسحب. حين فتحت الرسالة وجدت فيها تعزية حارة بالشهيدة وبتوقيع القيادة.**

قرأت الكلمات وأنا أرتجف.. التعزية من القيادة إذن، هم يعرفون عنا كل شيء. وها هم يرسلون لي برسالة تعزية، مع ملاحظة في ختامها: سنتصل بك قريبًا لأمر هام.

كانت الصدمة قاسية، بقيت في المنزل أيامًا لا أغادره. وأنا مثل طفل فقد أمه ولا يجد من يرعاه. وراحت الذكريات تزدحم في رأسي. وفي كل يوم يمر أشعر بوخز الضمير. كم ظلمتها، كم ظننت بها الظنون. لم أتوقع أبدًا أن تصل علاقتنا إلى هذا المنعطف المفاجئ. وهي كأنها كانت تحلم بمثل هذه النهاية. ظلت باستمرار تقول عن رفاقها الذين سقطوا أنهم الشعراء الذين يكتبون قصيدتهم بدمائهم. ها هي قد فعلت مثلهم. أخيرًا. وها هي صورتها تلتصق إلى جانب صورهم في شوارع المدينة. وسوف يلصقون فوق صورها صورة شهيد آخر. لقد تراكمت صورهم على الجدران، شكلت حجمًا بارزًا. إنهم الشعراء، هكذا كانت تسميهم، استعذبوا الموت كما يستعذب غيرهم الحياة. يندفعون نحو الموت ببهجة المنتصر كما اندفعت، لكنهم حتى الآن لم يتذوقوا نصرًا. كانت تردد أنهم بهذه الوسيلة يجعلون الوطن حيًّا في الذاكرة فلا يغيب عن بال عشاقه.

أما أنا.

ها أنا كالمجنون أستيقظ من الكوابيس وأتنقل من غرفة إلى غرفة وأنا أشهق بالبكاء، أضرب الحائط بقبضة يدي حتى تدمى. وأذرع الغرفة من زاوية إلى زاوية كأنني فقدت رأسي وأبحث عنه بمثل هذا الجنون. بل فعلًا فقدت رأسي، لأن هذا الصراخ الداخلي يجعلني أهتز كغصن يابس في العاصفة. ذهبت هي وتركت لي

ذكريات العذاب الشاسع، يلتقطني ويلوي عنقي ويضربني على أصابعي، أو يلوح بي. ثم يرمي جسدي الملطخ بدمائه في الهاوية.

وقبل أن تصلني هذه الرسالة، كنت في حالة أشد سوءًا.

كيف أتصل بأبو أحمد؟

كيف أصل إلى رفاقها وأسأل عن الطريقة التي استشهدت بها؟

ما العملية التي قامت بها؟

أين جثتها؟

أين شعرها الذي تمنيت أبدًا أن أغرز أصابعي فيه وهي تحاورني؟ كان عندما نتمشى معًا على شاطئ الرملة البيضاء يتطاير، فيلامس وجهي وعيني وفمي، فأكاد أقبله شعرة شعرة. يا إلهي، كيف كل هذا اندثر وكأنها لم تكن.

هي الحياة في الخارج على وتيرة. الحرب مستمرة. أصوات المدافع والقذائف تختلط بأبواق السيارات بصراخ الباعة على بضائعهم. كل شيء كما هو، إلا هي، ذهبت بعد ذلك الوداع الذي لم يخطر ببالي قط أنه الوداع الأخير، ظننت أنها ذاهبة إلى حبيب مجهول لا أعرفه، ولم يكن ذاك الحبيب في النهاية، إلا الموت، إلا استشهادها.

عندما وصلتني رسالة التعزية شعرت بالارتياح قليلًا، إذن، سيتصلون وأعرف كل شيء، أعرف كيف استشهدت، كيف واجهت الموت الذي تحدته بمثل هذا العنفوان؟

كانت مصممة على هذا التحدي منذ زمن طويل، بل لعلها منذ اللحظة التي فكرت فيها أن تعد لي ليلة الوداع. تلك الليلة كانت سعيدة ومبتهجة إلى حد كبير،

كما لو أنها الحنان والوجد والانصهار بي، إلى حد كنت أشعر أنني أنا ذاك الحبيب وألا حبيب سواي، وأن عرسنا أصبح قريبًا جدًّا.

ما كان يخطر ببالي أن العرس كان ذلك التحدي: الذهاب إلى الموت، ولم يكن ذهابًا عبثيًّا، بل من أجل قضيتها، هذه القضية التي تريد أن تظل حية في الذاكرة، حية باستمرار.

كنت أتصور أنها تبالغ، وأنها مجرد صبية حالمة تتحدث عن أشياء وهمية. لم يكن يخطر ببالي أنها جادة إلى هذا الحد في التحدي. والآن.. كم أنا نادم، لأنني كنت أسخر من أفكارها في السر. وأحيانًا أواجهها بسخريتي لأتهمها مع رفاقها أنهم واهمون. حالمون إلى حد الطفولة باسترجاع وطن مات من زمان. الآن أدرك أن هذا الوطن لم يمت ولن يموت. بل يجب ألا يموت طالما هي، هي بالذات، افتدته بروحها وحياتها ومستقبلها. يا إلهي. كم أنا نادم، أنا الموجوع الآن لفقدها، لو اندفعت نحو قضيتها اندفاعها هي لفزت باحترامها. ربما كانت تحبني، لكنها لم تحترم أبدًا مواقفي. ظلت تقول لي: اصح يا رجل.. اتخذ موقفًا واحدًا في حياتك.. لتكن لك قضية أرجوك. إن الحياة وقفة عز فقط.

ها هي، إذن، فعلت، ما لم أستطيع فعله.

كانت مصممة منذ البداية على اتخاذ هذا الموقف العظيم، فلم تشجعني على الارتباط بها. لم تشجعني حتى على المس بعذريتها وطهارتها. كانت تريد أن تذهب إلى عرسها الحقيقي عذراء بكل ما تعني هذه الكلمة. طاهرة. نقية، عذبة كالبنفسجة. وأتذكر الآن ماذا كانت تعني لها طهارة الاستشهاد. كانت تقول لي: اغتسل كل يوم قبل أن تخرج من البيت. حتى إذا نالتك قذيفة ما، تموت طاهرًا كنت أضحك من هذه التصورات، لكنني فعلًا تقيدت بتعليماتها. فكنت أغتسل متطهرًا بكل ما في الطهارة من شعائر كل يوم. ربما كانت هي أيضًا تفعل ذلك. إذ ظللت

تبدو لي، كلما التقيت بها. ناصعة ومشرقة، يضمخها ذلك العطر الفريد الذي لم أشم مثله في حياتي من أي امرأة صادفتها هنا وهناك، في حفل أو سهرة أو لقاء عابر.

وبين جنوني وصراخي اليومي، أرسم في ذهني كل مرة صورة مختلفة عن استشهادها، هل اندفعت نحو العدو بسيارة مفخخة وفجرت نفسها بهم؟ سبق لرفيقات لها أن فعلن ذلك، وملأت تضحياتهن الأخبار والصحف وأحاديث الناس.

أم قامت بعملية فدائية داخل الأرض المحتلة وقتلت هناك؟

يا إلهي.

يعني هذا أن جثتها فقدت. ربما أرادت ذلك، لعلها أرادت أن تروي بدمائها أرض الوطن؟ أم استشهدت بطريقة مختلفة. قتلت داخل المدينة، أو على خطوط التماس. لا.. لا، لم تكن تحب الاشتراك بهذه المذبحة، كانت دائمًا تقول إن مهمتها هناك على الحدود مع الوطن أو داخل الوطن. وإذا كان لابد لها أن تستشهد، فلتستشهد هناك بين الأعداء، بيد أبناء العم وأهل العشيرة..

كنت أحدق في الظلام وأنا مستلق على الكنبة حتى أرى ملامح الأشياء من حولي، ظللت زمنًا أطفئ الأنوار وأجلس محدقًا في الظلام حتى تحضر، فتحضر **بقامتها المديدة وتجلس قبالتي تمامًا. تسألني عن أحوالي. تأسف كثيرًا لأنها تركتني وحيدًا. تأسف لأنها عذبتني كل هذا العذاب.**

تتأملني. أتأملها وأنا دامع العينين، أكاد عبر الدموع أشعر بدفئها. بل برائحة عطرها. لا، لم أكن أحلم، إنها رائحتها، هلتها، قدومها نفسه لحظة تدخل المقهى فتحرك كل شيء، الناس والنبات والحجر. أحاول أن أخاطبها فيخرس صوتي فأراها

تردد وهي مسبلة يديها على ركبتيها: أعرف.. أعرف. وتصمت. أظل أتأملها غير مصدق أنني لا أرى خيالًا، أشعر كما لو أنها أمامي من لحم ودم. وما أن أحاول ترك مقعدي لأتقدم نحوها، حتى يفلت هذا النور الساطع من أمامي، ويختفي قبل أن أمد يدي نحوه.

اعتدت بعد ذلك، ألا أفعل، وكلما حضرت وأنا جالس في تلك الزاوية المعتمة تجلس على هذا المقعد المقابل بالذات، تسألني عن حالي. وعندما أحاول التكلم. تبتدرني: أعرف. أعرف.

إنها تعرف إلى أي مدى أنا حزين ومحترق حتى العياء، ويبدو وجهها كأنه القمر المضيء، وتجول بنظراتها أرجاء البيت الذي لم تزره أبدًا، ثم تعود لتتأملني. فيما أنا أرمقها محبوس الأنفاس. أخشى أن تبدر مني حركة ما، فتختفي، ألم تقل لي ذات يوم: الشهداء لا يموتون، يظلون في الدنيا، في الأمكنة التي أحبوها إلى قيام الساعة.

لا تحضر إلا في الليل، فلم أعد أنام الليل. وأظل طول النهار مهزوز الأعصاب.منتظرًا قدوم الليل.. يا إلهي. كم عذبني انتظارها وهي حية. وها هو انتظارها الآخر وهي شهيدة يعذبني أكثر.

أي حركة، مهما كانت ضئيلة. حتى ولو كانت نسمة هواء تداعب ستار النافذة يختفي هذا النور الساطع، فأتعذب عذابًا لا حدود له، لاعنًا الهواء والنوافذ وكل ما يتحرك، في حضورها أتنفس ببطء شديد، حتى لا يكاد الهواء يلامس أنفي، وبطيئًا بطيئًا، في قلب الظلام يبزغ نورها، فأرى كل ملامحها وتفاصيلها، ومرة جاءتني بثوب عرس أبيض، جلست أمامي في أبهى جمالها. سألتني إن كنت ما أزال أحبها،

جثوت على ركبتي أمامها. لم تتحرك. ظلت تنظرًا نحوي بحنان، فرحت أردد كأنني أرتل: أحبك.. أحبك إلى الأبد..

تضحك. ضحكتها ذاتها. أمازالت قادرة على الضحك؟ وأسمع همسها كهسيس هواء ناعم يلفح وجهي المعروق الملتفح برطوبة البحر المالحة: وأنا يا مجنون أحبك من زمان.. منذ اللقاء الأول أحببتك.

إنها تخاطبني.

صوتها ذاته.

وتتحرك تاركة مقعدها، تنحني قليلًا نحوي وأنا ما أزال جاثيًا على ركبتيَّ مذهولًا مما أرى.. بل واعيًا لكل ما أرى. لا. ليس خيالًا. ليس تخيلًا. ليس جنونًا. أنا بكامل قواي العقلية، بكامل وعيي. إنها هي حضورها نفسه. أيتها المباركة بطهارة الشهادة، أيتها النقية نقاء هذه الدموع التي تنسكب من كل عين حزينة. أنت أنت يا أيها النور الذي يغمرني في ظلام هذا السكون الساكن قلب الليل. اقتربي مني. انتزعيني من هذه الوحشة التي تأكلني كما تأكل النار الهشيم.

نمت تلك الليلة نومًا عميقًا.

فمنذ رحيلها كان النوم كوابيس أصحو منها مبللًا بعرق بارد، كوابيس من الخوف. وطلاسم من الكلام غير المفهوم، ومطاردات ورصاصًا وقتلًا. أصحو. أترك السرير. أغسل وجهي. أجلس في الزاوية داخل الظلمة. ظلمة المكان والعالم والقلب العليل. أنتظرها. تحضر. ولا تحضر. أحيانًا كثيرة يدخل نور الصباح ولا تحضر. لم يعد يهمني ما يحدث في الخارج من أوجاع وتعب وألم. فما أنا فيه يفوق كل عذابات الآخرين. إنها احتراق السكين للقلب الندي.

اقتربت من الجنون.

لعل صرت مجنونًا فعلًا، منعزلًا عن عالم الآخرين الصاخب، عن الحرب الدائرة خارج البيت، منتظرًا قدوم أي شخص من قبل أبو أحمد. أريد أن أعرف. وهم يعذبونني، إلى الآن لم يتصل بي أحد منهم. لا أدري كم مر من الوقت، ربما شهر أو شهران. إلى أن طرق الباب ذات يوم ووجدت نفسي وجهًا لوجه أمام «أبو أحمد» خطا إلى الداخل بهدوء.

وأقفل الباب خلفه. ثم قال لي:

– تأخرنا عليك.

– تأخرتم كثيرًا.. كان يجب أن ألقاك منذ استشهادها.

– أعرف.. لكننا قررنا أن نتركك بعض الوقت كي تعتاد فراقها.. كنت قلقًا عليك أنا الآخر. كنت عزيزًا علينا جميعًا، لأنها كانت تحدثنا عنك باستمرار. ونحن كنا نعرف كل شيء عنك.

اختار أبو أحمد المقعد الذي كانت تجلس عليه كلما زارتني في الليل، المقعد نفسه، الملاصق للنافذة المفتوحة. جلس عليه. ألقى نظرات خاطفة على أرجاء الصالون، كان يحمل بين يديه شيئًا ملفوفًا بعناية.. ثم ما أن استقر به الجلوس حتى مد يده بما يحمل وقال لي:

– هذا يخصك.

كان عبارة عن علبة صغيرة، ما أن فتحها، حتى فاح عطرها. ثم... خصلة من شعرها معقودة عقدة واحدة، وإلى جانبها مغلف أخضر مغلق. ارتجفت. غامت عيناي بالدموع. ظللت أحدق بمحتويات العلبة لحظات متتابعة لا أعرف ماذا أفعل.

أنظر نحو «أبو أحمد» فأجده مطرقًا. أعود إلى العلة التي لا تهتز بين يدي. ومع أنني أعرف هذا الشعر جيدًا، لكنني وجدت نفسي أسأل «أبو أحمد»:

- شعرها؟

قال:

- شعرها.

- كيف انتزعتموه منها؟

- هي التي قصت هذه الخصلة قبل أن تذهب إلى مهمتها الأخيرة، وهي التي تركت لك هذه الرسالة في هذه العلبة بالذات، وطلبت منا أن نسلمك إياها إذا لم تعد.

- وهي لم تعد.

- لقد أدت مهمتها خير أداء.

- أنتم قتلتموها..

- لا تقل ذلك أرجوك. إنها أختنا. جميعنا معرضون لأن نموت مثلها.

- تموتون من أجل لا شيء.

- أرجوك.. لا تقل ذلك.. من أجل ذكراها على الأقل..

صمت.

بينما تابع أبو أحمد:

- لقد استشهدت في عملية كبيرة.

- وجثتها!

- استطاع الرفاق أن يحققوا رغبتها.

- كانت تريد أن تدفن في البحر.

- أكنت تعرف ذلك.

- كانت تقول لي دائمًا هذه الرغبة.

– حققنا رغبتها والحمد لله.. لقد استطاعت أن تفجر كمية كبيرة من المتفجرات في مبنى مخابرات العدو، وقتلت الكثير منهم قبل أن تستشهد. ومثلما تمنت حققنا أمنيتها.. إنها الآن في أعماق البحر.

كنت سأطلب منه البقاء، أحسست بارتياح في وجوده، كنت سأطرح عليه الكثير من الأسئلة، لاحظ ترددي. قال:

– سأتركك الآن.. ولكن إن رغبت سأزورك مرة ثانية.

قلت:

– بالتأكيد.. أنا بحاجة إليك يا أبو أحمد.. صدقني بحاجة إليك.. ستخفف عني هذا الحزن. يكفي أنك تعرفها. ربما عرفتها أكثر مني، أريدك دائمًا، أريدك بجواري، معي وإن أمكن أن تأخذني معك. أريد أن أعرف كل من عرفها من رفاقها، أن أسمع كل شيء. حكاياها، نزقها، روعتها، لم أكن أراها كثيرًا.. لعلكم كنتم أكثر مني رؤية لها.

قال:

– نعم.. نعم، عاشت معنا معظم حياتها.. تأكد أنني سأزورك قريبًا.. اسمح لي بالذهاب الآن.. لا شك أنك تريد قراءة الرسالة.

ودعت أبو أحمد وعدت إلى مكاني حيث تركت العلبة على المنضدة الصغيرة. تأملت العلبة. خصلة الشعر المتوسدة أحضانها. المغلف الأخضر. لم أجرؤ على لمس المغلف. وتساءلت ماذا يمكن أن تكتب لي فيه؟

تناولت المغلف، أخاف أن يتلاشى بين يدي، وبرق شديد فتحت طرف المغلف وسحبت الأوراق منه. ثلاث ورقات مطوية بأناقة. وما أن فتحتها حتى فاح عطرها أكثر من ذي قبل. ثم توهجت الكلمة الأولى كأنها أحرف من نور:

«حبيبي».

وأشحت قليلًا أخنق دموعي التي نفرت من عيني، لم أستطع التحكم بها. للمرة الأولى تقول هذه الكلمة، كأنني أسمعها الآن بنبرة صوتها الحنون «حبيبي» أحقًّا كنت حبيبها. وأنا الذي كنت أتشهى سماعها منها في كل لقاء، تقولها لي بعد رحليها؟

أردت متابعة القراءة، لكنني عجزت. وصرت أجهش بالبكاء كولد مسكين. أترى كان يعرف أبو أحمد ما سوف تفعل بي رسالتها فآثر تركي لوحدي. لأحزاني لضعفي وانهياري، وذهب؟.. ربما، هل كان يعرف ماذا في داخي الرسالة؟ لا أدري.

وعدت إلى الورق بين يدي، وقرأت ثانية وعاشرة ومائة مرة. تلك الكلمة في أول السطر «حبيبي» وظل صوتها يهمس بها تكرارًا كأنها أغنية:..

حبيبي.. حبيبي.. حبيبي..

أتراك الآن حاقدًا علي؟

لا أظن.

غير أنني فعلت ما فعلت برضاء تام، وإن كان ثمة ما يحزنني فهو فراقك أنت، أعرف كم سيحزنك فراقنا، وكم ستتألم، لكنني متأكدة أنك ستنسى، وتبدأ حياتك من جديد. فأرجو لك أن تجد المرأة التي تعوضك غيابي.

كنت منذورة لهذا الفعل منذ زمن طويل، وعندما بدأت أشعر أنك صرت تعني لي الشيء الكثير، كدت أتراجع، لكن ذلك النداء كان في النهاية هو الأقوى. ليست الحياة بذات قيمة إن لم يكن هناك شيء عظيم تمارسه فيها قبل أن يأخذك الموت الذي لابد من مجيئه ذات يوم. هي الحياة حلم ووهم في آن، والموت هو الفناء

الذي لا عودة منه، لكن ثمة ما تنتصر عليهما معًا: إنها الشهادة، أنا مؤمنة بذلك إيمانًا عميقًا، وأظن أنني سأفعل فعلًا كبيرًا. يجعلك بينك وبين نفسك، تفخر بي.

لا.. لا تعترض.

الآن، أعرف كم أنت حزين، وكم تتألم وتتعذب، لكن الأيام كفيلة بالنسيان، كفيلة بأن تلتفت مجددًا إلى الحياة ووهما الكبير وصراخها اليومي.

في الواقع، كنت أنا قد تجاوزت هذه المرحلة، وعندما جئت وأوقفك القدر في طريقي، لم يعد بإمكاني التراجع.

هل تتجسد السعادة فقط في الحب ونجاح تبادله بين طرفين؟

لا أظن..

صحيح أن الحب من علائم الحياة الجميلة، لكن هناك ما هو أعظم وأكبر، هناك الوطن والتضحية من أجله. وأنا كنت أرى وأقرأ وأعرف أن لا شيء يستعيد الوطن إلا التضحية من أجله بكل غال ورخيص، وكنت مؤمنة دائمًا وباستمرار أن الوجود كله يتلخص بعبارة واحدة «إن الحياة وقفة عز فقط».

عندما اتخذت قراري النهائي، كنت سأدعوك إلى حفل الوداع الذي أقامه لي الرفاق في ضهور الشوير، لكنني خفت لو فعلت ذلك، وجئت أنت الحفل أن أجد نفسي مضطرة إلى التراجع. لأنني كنت أعرف ما هي قيمتي عندك. ولو جئت وعرفت أن هذا الحفل حفل وداع لي، لتشبثت بي، ومنعتني من الذهاب، وقد أرضخ للحظة ضعف وأتردد. فيتراجع اندفاعي ويخيب أملي بنفسي.

من أجل ذلك امتنعت عن دعوتك، مع أن أبو أحمد وآخرين تمنوا علي ذلك.

هل كنت على صواب؟ ربما لا.. ربما نعم.. لست أدري.

يا سيدي وحبيبي.

أكتب لك هذه الكلمات في اللحظات الأخيرة. تصور، أن لا شيء الآن في ذهني سوى ما أنا ذاهبة إليه وأنت. لا أفكر بأي شيء آخر. لا بالأهل، ولا الأصدقاء، ولا الرفاق. أنت وحدك الذي سيحز في نفسي فراقه. ولكن، عندما تعرف الحقيقة، ستعذرني وتغفر لي. نعم، أريد من كل قلبي أن تغفر لي ما سوف أسببه لك من ألم، وأريد من كل قلبي أن تفرح من أجلي. أن تفرح فرحًا حقيقيًّا، لأن ما سأفعله بعد قليل يجب ألا يشكل عندك أي حزن. وأقول لك إنك كنت وحدك حبي الوحيد، وحدك من دون ما عرفت من الرجال والرفاق، وحدك الذي اخترق جدار القلب الذي كنت أحرص أشد الحرص على إحاطته بمناعة من الفولاذ، حتى لا يقدر أي رجل على اختراقه مهما كان جذابًا أو ساحرًا أو قويًّا في إغراء المرأة... هل قلت لك إنك اخترقت جدار القلب؟ قد أكون مخطئة في هذا التعبير، دعني أقل إنك تسللت إلى القلب والفكر والدم والأعصاب، تسلل الهواء النقي إلى الرئتين، بلطفك، وحنانك، ووفائك. ورجولتك. وبجاذبيتك الغريبة التي كانت تشدني دائمًا للعودة إليك.

لعلك تذكر أنني لم أكن أعطيك موعدًا، لأنني في كل مرة ألقاك فيها، يطحنني صراع مرير: أعود.. أو لا أعود. لأنني كنت أخشى ما حدث فيما بعد. أن تتوطد علاقتنا وأشعر أنك فوق كل الأمنيات والتمنيات. فأتخلى عن المهمة التي نذرت نفسي لأجلها، وأسقط في حبائل الحياة اليومية امرأة مع رجل، زوجة لزوج وبيت وأولاد ونفخ وطبخ.. كنت أخاف هذا المصير.. وعندما بدأت أحبك، صرت أطلب من القيادة أن تبعدني في مهمات متتابعة عن بيروت، حتى أخفف من لقاءاتي بك، بل حتى أمنعك من حبي، لكن الحب الذي ربطنا معًا، كان أقوى من كل هذه المحاولات، وصرت أشتاق لك دون توقف. واشتهيت لو أن لهذا الاشتياق جسدًا ما،

حتى أطلق الرصاص عليه ويموت، لكنه كان في ذاتي. في أفكاري. وأعصابي، ودمي. في أصابعي وجلدي. في ملابسي وعطري. فبت أشعر أن عليَّ أن أعدم نفسي، أن أطلق الرصاص على صدغي كي أوقف هذا الاشتياق.

الآن، بعد ساعة أو ساعتين. سأمضي إلى مصيري المحتوم الذي لا رجعة عنه، ولكن لن أفكر بأحد سواك. إنني ذاهبة إلى فعل عظيم، فعل سيسجل اسمي بمداد من ذهب. سأكون بطلة. هذا باختصار ما كنت أبحث عنه دائمًا، أريد أن أكون بطلة كي أكون جديرة بحب الوطن وحبك. وقد لا تريدني أنت بطلة من هذا النوع. لكنني واثقة أنك ستفرح بي، إن لم يكن غدًا، فبعد غد، أو بعد شهر أو بعد عام، عندما تعرف أن ما أقدمت عليه لن يذهب هدرًا، وأنني بتضحيتي سأكون مقدمة لقافلة من الشهداء تباعًا الواحد بعد الآخر، وسنكون جميعًا الشعلة المشتعلة دون توقف، حتى لا تنسى الأجيال. لا تنسى أن وطنًا احتله أناس لا علاقة لهم به، جاءوا من كل أطراف الأرض ليبنوا وطنًا هو وطن غيرهم، ليبنوه على أشلائنا وأحلامنا وأمانينا. وفي ظنهم أن الوقت إلى جانبهم. وأنهم بعد مضي زمن سيصبحون هم أصحاب الوطن ونحل محلهم في المنافي البعيدة. يجب ألا يحدث هذا. يجب أن يعرفوا أننا سنظل نهز الأرض من تحتهم، وسنظل نقدم الأضاحي صباح مسار على مذبح الوطن المسروق، حتى يعود إلى أهله وأبنائه.

من أجل هذا، سأفعل ما هو مطلوب مني الآن، وسيفعل بقية الرفاق مثل هذا الفعل الكبير حتى يبقى الأمل، تبقى الشعلة، يبقى الهدف حيًّا في النفوس.

يا سيدي وحبيبي، بل اسمح لي أن أناديك يا زوجي واعتبرني زوجتك الشهيدة التي ستظل روحها تحوم حولك أينما كنت وفي أي مكان. هكذا أتصور نفسي، وهكذا سأشعر «إن الدماء التي تجري في عروقنا عينها، ليست ملكنا. بل هي ملك

الأمة متى طلبتها وجدتها. أرجو أن تصدق هذا الكلام. وأنا مؤمنة به أشد الإيمان، وسوف تثبت لك الأحداث صدق هذا الكلام العظيم. قول لا خلل فيه. وهو الصدق الحقيقي. لقد أعطى الخالق الشهداء منزلة عظيمة، لأن أبلغ وأعظم تضحية هي تلك التي يمنحها الشهيد في سبيل مبادئه ومثله.

بقي أن أقول لك: عش حياتك كما لو كنت معي. عشها كما أحببتك فيها، أنيقًا، ساحرًا، جميلًا، محبوبًا، جذابًا، هكذا كنت في حياتي. وهكذا ستظل هذه الصورة في ذاكرتي حتى اللحظة الأخيرة، وإذا أتيح لي أن أعي اللحظة الأخيرة في حياتي، فسوف أعي أن صورتك هي آخر صورة ستتجسد في ذاكرتي. واعلم، الآن، وأبدًا، أنني أحبك، وسأحبك دائمًا.

«ابتسام».

كنت أرتجف وأنا أقرأ السطور، كنت أبكي، دموعي بللت ذقني وياقة قميصي. وتسربت إلى جسدي. وأنا أعيد قراءة السطور، أحاول أن أستوعب صورتها وهي تكتب هذه الكلمات، أحاول أن أستحضرها كما لو أنها تكتب أمامي.. **يا إلهي، كيف استطاعت أن تكتب كل هذه السطور بهدوء، وبأعصاب متينة، كلمات تنساب من إنسان ذاهب إلى الحياة السعيدة وليس إلى الموت المفجع**.

تنساب من أنامل ثابتة، كأنها تكتب نيابة عن امرأة أخرى أوصتها أن تكتب عنها رسالة إلى حبيبها، سطور امرأة واثقة من نفسها وعارفة كل المعرفة بما تفعل.

حاولت أن أمسك خصلة الشعر المعقودة أمامي، لم أستطع. خيل لي وأنا أمد أناملي نحوها، كأنني ألمس ذلك الشعر المتطاير إلى جانبي ونحن نتمشى على شاطئ

الرملة البيضاء. لقد تركت لي شيئًا منها، شعرها الذي أحببت دائمًا أن أدفن فمي فيه إلى الأبد.

اقتربت بأناملي من العلبة، ثم تراجعت. وعطرها ذاته يفوح منها، عطرها الغريب الذي كان يملأ المكان قبل وصولها، ويبقى عالقًا في الأنوف بعد ذهابها.

ما أن صممت على الاقتراب من خصلة الشعر حتى هبت عليّ ريح سريعة. واهتز بي المكان كما لو أن زلزالًا وقع، وإذا بها أمامي بكل قامتها الرمح، ملأى بالفرح، ومتبرجة كما لم أرها من قبل أبدًا. خيل لي أنها تتكلم كلامًا لم أستطع أن أتبينه، كانت تحرك شفتيها بكلام غير مفهوم، ثم تراجعت عني قليلًا وجلست على ذلك المقعد المجاور للنافذة المفتوحة.

قلت:

- كنت أقرأ رسالتك..

هزت رأسها كأنها كانت تعرف.

قلت:

- يا ليتني كنت معك يوم الوداع.

أشاحت بوجهها عني وأطرقت.

بدت لي حزينة هذه اللحظات، وانتبهت أنه الليل في الخارج، لم أنتبه للوقت وأنا أقرأ الرسالة مرارًا وأعيد قراءتها.. وتذكرت أنها لا تحضر إلا في الليل يبزغ نورها كقمر في السماء.

قلت لها:

- لقد عذبتني رسالتك.

رفعت رأسها. وأزاحت قليلًا من شعرها المتناثر على جبينها وسمعت همسها كنسمة هواء باردة في أيام القيظ:

– وأنا أيضًا، تعذبت، عندما كتبتها لك. كنت سأمزق الورق وأعدو نحو بيتك. متراجعة عن كل ما صممت عليه، لكن ذلك النداء كان أقوى.

– خصلة شعرك.. والرسالة حملهما لي أبو أحمد.

– أعرف.

– أتعرفين؟

– أعرف كل شيء.

حاولت ترك مقعدي والاقتراب منها، رفعت يدها تشير بألا أفعل، فعدت إلى مكاني.

ظلت تحدق نحوي بحنان، ثم جاء همسها:

– أريدك أن تخرج من هذا الحزن.

– لا أستطيع.. لا أستطيع.

– من أجلي.. إن كنت تحبني كان عليك أن تفرح.

– كيف أفرح لفراقك.. هذا الفراق كان مؤلماً للغاية.

– ظننت أن رسالتي ستوضح لك الكثير.

– وماذا تظنينني أفعل؟

– أن تنسى.. أن تشغل نفسك بقضية كبيرة..

سكتنا معًا، كنت أتأملها، فيما هي ترمقني بتلك النظرة التي لا أنساها فيها الغامض والواضح في آن.

قلت:

- لا أفهم هذه النظرات.

- لا تحدثني كما لو كنت على قيد الحياة. إنني أراك بغير الصورة التي كنت أراك فيها.

- كيف ترينني الآن؟

- أنت زوجي وحبيبي.. أريدك أن تحسم أمرك هذه المرة.

- يعني؟!.

- يعني أن تلتقي «أبو أحمد».

- يا إلهي.. كيف فاتني أن أفكر بهذا الأمر.

- لا تقلق، فهناك مزيد من الوقت.

ثم وقفت. واقتربت مني هذه المرة حتى كادت تلامسني، وما أن مددت يدي نحوها حتى اختفت، لأجد خصلة شعرها هي التي في يدي. فانحنيت عليها أقبلها بجنون يختلط بالدموع.

قال أبو أحمد:

- هل أنت واثق مما تقول؟

- كل ثقة.

- أريدك أن تفكر كثيرًا قبل أن أصدق ذلك.

حدقت إلى أبو أحمد لحظات ثم قلت:

- لقد اتخذت قراري منذ زيارتك لي.. والآن أنا على استعداد لأي مهمة أكلف بها.

وامتلأ وجه أبو أحمد ببشر واضح. ثم قال لي:

– سنكلفك بأمور إدارية.. أنت لست قادرًا على القيام بأعمال كبيرة.

– من قال لك ذلك؟

– أنا الذي أعرف.. كما أعرف كل إمكانيات الرفاق.. إذا رغبت العمل معنا فعليك إطاعة الأوامر دون أي نقاش، ستخضع لتجارب عديدة.

– يا أبو أحمد يجب أن تفهمني.. ألا شيء يربطني بالحياة الآن.. وأريد أن أقوم بعمل كبير.

– بإيمان!؟

– عن إيمان كامل.

– أرجو ألا تكون مبالغًا، نحن لدينا تجارب سابقة من الحماسة الآنية لرفاق عديدين، لكنهم فشلوا في أداء مهماتهم، وألحقوا بنا ضررًا فادحًا.

– ألا تجربني؟

– إنه الكلام نفسه الذي كان يقوله أولئك الرفاق. والأفضل أن تخضع للتجربة أولًا.

– يا سيدي.. أي تجربة.. إنني لا أستطيع الصبر كي أخضع إلى تجاربك.. إما عمل كبير أو لا.

– إن الارتقاء إلى عمل كبير يمر بمراحل كثيرة. التدريب أولًا. معرفة القدرة في التحكم بالأعصاب ثانيًا، والإيمان ثالثًا، بل الإيمان أولًا وأخيرًا.. أنا أعرف الآن الدوافع التي لديك.. وهي غير ناضجة لأقتنع بك. خذ مثلًا الشهيدة التي هي جزء منك ومنا. هي نفسها أخضعناها لتجارب قاسية ومستمرة على مدى ثلاث سنوات. إلى أن شكلت لدينا قناعة حقيقية بأنها أصبحت قادرة على القيام بالمهمة الموكلة إليها خير قيام.. وهذا ما حدث فعلًا. إننا فخورون بها جميعًا. لقد سببت ضررًا بالغًا للعدو ما كنا نتوقع أن يكون حجمه بهذا الشكل، فأعطتنا درسًا لا ينسى في نكران

الـذات والتضـحية الكبـيرة، نحـن لا نريـد الآن إلا أناسًـا مـن هـذا النـوع. يـذهبون إلى الاستشهاد الجميل كما يذهب أي إنسان إلى الحياة الجميلة.. وأظن أنك لم تبلغ بعد هذا المرتقى.

– إنك تجعلني أشك بقدراتي.. وهذا يؤلمني حقًّا. ما كنت أتوقع أن تكون قاسيًا معي إلى هذا الحد.

– على العكس، إنني أحترمك، وأحترم رغبتك بالتعاون معنا، لكننا لا نريد أن نلقي بك في عملية أنت في أعماقك لست مقتنعًا بها، كل ما فيك الآن نزوة.. أو بعبارة أدق لحظة وفاء للراحلة الشهيدة.

– نعم.. نعم، ليست لحظة وفاء وحسب، بل موقفًا صارمًا وقويًّا في النفس، أن أنال شرف الشهادة كما نالته هي.. صدقني يا أبو أحمد.. هذا ما أرجوه وما أريده حقًّا.. أريد الذهاب إليها عبر ما آمنت هي به وما أومن به الآن. كانت تريدني أن أكون مثيلًا لها. وغالبًا ما كانت تناقشني في مثل هذه الأمور، وكنت أظن فيها ما تظنه أنت الآن فيَّ: مبالغة وحماس يتراجع ويسقط عند أول تجربة حقيقية. لا. لدي الآن تصميم قوي على أن أفعل ما فعلت، فأرجوك أن تساعدني على نيل هذا الشرف، وبدونك أنت لا أعرف ماذا أفعل؟

حـدق أبـو أحمـد نحـوي طـويلًا، كمـن يحـاول أن يسـبر غـور نفسـي. أشـعل سيكارة، ثم أطرق. وراح ينفث دخانها بهدوء. ظللت صامتًا، وظل هو صامتًا ردحًا من الزمن، كنت أعرف ماذا يجول في خاطره تلك اللحظات، كما كنت أدرك أنه هو أيضًا يحاول أن يعرف ماذا يجول في خاطري، وكنت أنتظر أن ينطق تلك العبارة التي أتشوق إليها، مثلما ينتظر بريء متهم الحكم ببراءته. ما أشد المفارقة، أنتظر أن

يقول لي اذهب إلى الموت، كما ينتظر ذاك البريء أن يقول له القاضي: اذهب إلى الحياة.

وعندما رفع أبو أحمد رأسه نحوي وقد ارتسمت على ملامحه علائم التصميم، أدركت أنه سيطلق سراحي إلى ذلك الرجاء العظيم.

تمت في
١٩٩١/١١/٩

ملاحظة

هذه القصة الطويلة، تطوير لقصة قصيرة سبق لي نشرها بعنوان «نهر حنان» وهي تجربتي الثانية بعد رواية «مصرع الماس» التي سبق أن نشرتها قصة قصيرة، ثم تبين لي أن أحداثها تصلح لخامة رواية.

فـ«امرأة غامضة» هي صورة متسعة الشاشة لأحداث مستوحاة من واقع الحرب الأهلية اللبنانية، وبالتالي مواجهة الغزو والدفاع عن الوطن.. هذا ما دفعني إلى إعادة النظر فيها.. وصياغتها من جديد على هذا الشكل الذي خرجت فيه.

ياسين رفاعية